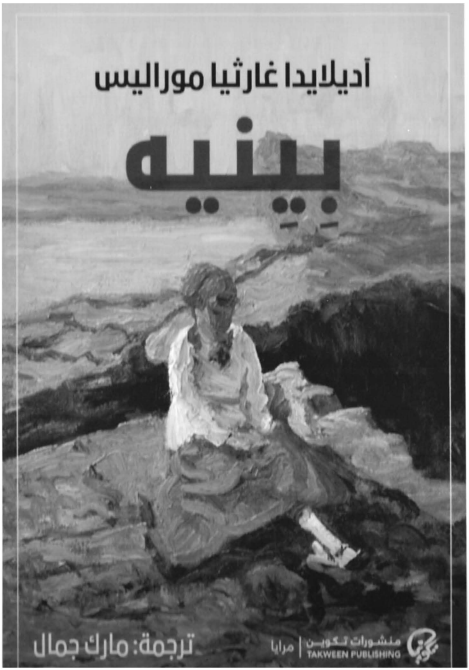

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الكاتب: آديلايدا غارثيا موراليس

عنوان الكتاب: بِينيه

ترجمة: مارك جمال

...

العنوان باللغة الأصلية: Bene

الكاتب: Adelaida García Morales

...

لوحة الغلاف: والت كون: المرأة ذات المنديل الأحمر على الشاطئ

Walt Kuhn: Woman in red scarf near the seashore

...

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

...

ر.د.م.ك: 978-9921-808-32-2

الطبعة الأولى يوليو/ تموز 2024

1000 نسخة

...

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

...

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

بالأمس حلمتُ بك يا سانتياغو. رأيتُك آتيًا إلى جواري، ماضيًا ببطء وسط أشجار الكافور، هناك حيث ذهبنا لتناول الوجبة المسائية مع بِينيه مرات كثيرة، أتذكر؟ حتى هي ظهرَت في حلمي، بثوب رمادي مُخطَّط ومئزر أبيض، بثياب العمل. تراءت في غاية الحزن وهي ترنو إلى الأرض، إلى ما بين قدمَيْها، وقد ضمَّت يدَيْها، وكأنها تلميذة في المدرسة. سرنا أنا وأنت ببطء، بينما ظلَّت هي بعيدة، في غاية السكون. لم تكُن تحمل سلَّة الطعام، وبدَت كأنها تختبئ مِن أحد ما، أو شيء ما، لعلّها كانت تختبئ من تلك الصرخات الكريهة التي ترشقها بها الخالة إليسا لأي سبب مهما بلغ من التفاهة، مع أنها تلقى سائر الناس بكل عذوبة وتهذيب. رأيتُك عائدًا لتبقى معي هنا، في هذا البيت العتيق حيث وُلِد كلانا، وحيث أعيش الآن، مُحاطةً بظلال الراحلين، ظلالكم. جئتَ وأنت

في العمر الذي كنتَ تبلغه آنذاك، عندما رحلت. رأيتَ بِينيه وسط أشجار الكافور، فإذا بك تضمّ ذراعي بقوة، وتهمس في سمعي مذعورًا: «لقد عرفتُ لماذا رحلَت بِينيه!». اقتربنا منها، فلمحنا بين يدَيْها شيئًا، كتابًا، بدا أنه كتاب صلوات القدّاس الإلهي. عند ذاك استطعتُ أن أرى على غلاف الكتاب بصمةً محترقة تركَتها يدٌ بشرية. أما أنت، فلم تعُد إلى جواري. وجدتُ نفسي وحيدةً معها، مع بِينيه لا أعرفها، رفعَتْ إليَّ وجهها الخالي من كل تعبير. بدَت نظرتها وكأنها آتية من خواء بلا نهاية. وبدأت عيناها تبرقان بشدة خارقة. حاولتُ الهرب من الضيق الذي كتم أنفاسي. وإذا بي أستيقظ من شدة الجهد المبذول. بينما لم تقدر أنتَ على أن تفضي إليَّ بما تعرفه عن رحيلها المفاجئ.

ما زلتُ أذكر ذلك اليوم، يومَ ذهبنا لنُحضِر بِينيه. لم يرغب أخي سانتياغو في الذهاب

معنا، وظلَّ جالسًا في الحديقة، مستغرقًا في القراءة بالانتباه الذي تعوَّد أن يضعه في إحدى ألعاب الطفولة الأثيرة إلى نفسه: عندما كان يمسك جرادةً بيده اليسرى، ويغرز الإبرة في عينَيها بيده اليمنى، بحرص شديد أيضًا. كم مرة شهدتُ ذلك التعذيب الذي كان يمارسه، فصرختُ فيه باستماتة، ونعتُّه بالقاتل! حتى في تلك الأوقات، بينما هو مستغرق في القراءة، كانت تدفعني رغبةٌ إلى الصراخ فيه حتى أُبعِده عن تلك الكتب التي تحول بيننا كل يوم. كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، ويكبرني بأربعة أعوام. وإن لم يكُن الفارق العمري هو الشيء الوحيد الذي يفصل بيننا آنذاك، وإنما تلك الحياة الجديدة التي بدأ يعيشها قبل عامَيْن، عندما التحق بالمدرسة. بينما بقيتُ أنا وحيدة، حبيسة دائمًا في البيت، هناك حيث كانت تلقي عليَّ الدروس دُونيا روساورا، المُعلِّمة

الوحيدة التي حظيتُ بها في طفولتي.

كنّا نعيش في إكستريمادورا، في بيت كبير منعزل، يبعد عن المدينة نحو ثلاثة كيلومترات. لم أُفوِّت فرصة واحدة للخروج من البيت، وأنا التي تعبتُ من الوقوف عند السياج وتأمُّل الطريق الخاوية أغلب الأوقات من خلال القضبان. كان العالَم يبدأ هناك، في الخارج، حيث يمكن أن تقع أعجب الأمور، حسبما خُيِّل إليَّ. ولكني لم أتمكَّن إلَّا من رؤية قطعان الثيران التي كانت تمرّ من هناك في أحيان كثيرة، فتثير سحابة من الغبار تلفّ الثيران، بينما ترتجف الأرض على وقع خطواتها القوية. كانت القطعان تمرّ راكضةً دائمًا، فلا أكاد أراها قد اقتربَت بشدة حتى أنطلق مُهرولةً للاختباء خلف أحد أعمدة السقيفة. ومن هناك، أتأمَّلها في هَوْلٍ وحماسة. في بعض الأحيان، كانت تمرّ قوافل طويلة مِن العجر الذين يقودون

عرباتهم الثقيلة وقد خيَّم عليهم الصمت وأدركهم التعب. لم أدرِ يومًا إلى أين ذهبوا، ولا مِن أين جاؤوا. لطالما عمَّ إكستريمادورا فقرٌ مدقع. ولكن البؤس كان حاضرًا في كل مكان آنذاك، في مطلع الخمسينيات. كنتُ أذهب إلى المدينة، فأولي انتباهًا شديدًا إلى كل أولئك المعدمين الذين يستَجْدون العملات المعدنية مُمدَّدين أرضًا في الشوارع، بثيابهم البالية، وهم لا بيت لهم ولا طعام. أعتقد بأنني قد أوليتهم ذلك الانتباه لأن صديقتي الوحيدة في الطفولة كانت حفيدة شحاذ، وعاشَت معه وحدها. كانت تُدعَى خوانا، وهي شقيقة بِينيه، مع أن لكلٍّ منهما أبًا مختلفًا، على حدِّ قولها. كانت تمرّ أمام سياج بيتي مع جدها كل يوم. وتتمهَّل كي تراني لبعض الوقت إن مرَّت وحيدة، فنتجاذب أطراف الحديث طويلًا من خلال القضبان. أما لو سمحتُ لها بالدخول أو

خرجتُ حتى ألعب معها، فكانت الخالة إليسا تعاقبني. توثَّقت صداقتنا أنا وخوانا، بينما راح سانتياغو ينأى بنفسه عني مُنصرِفًا بالكامل إلى الواجبات المنزلية وزملاء الدراسة. كنتُ أهرب معها أو أسمح لها بالتسلُّل إلى البستان خلسة كلَّما سنحَت لي الفرصة. ذات يوم، رأيتُها تمرّ مع جدّها على الطريق، فلم تبادرني ولو بنظرة واحدة. كانت ترتدي ثوبًا أبيض، فعرفتُ أنها قد تلقَّت المناولة الأولى (١) على الرغم من تنورتها القصيرة. يومذاك اعتمرَت طرحةً منسدلةً على كتفَيْها وإن لم يمكن تثبيت الطرحة، لأن رأسها حليق. إذ يحلقه الجدُّ لئلَّا يتَّخذ فيه القمل عشًّا. كانت خوانا في مثل عمري، وإن بدَت أصغر مني. لهذا لم أندهش أكثر مما ينبغي لأنها قد تلقَّت المناولة الأولى وهي في الثانية عشرة. أذكر أنها، بعد أيام قليلة، عاودَت المرور أمام السياج بثوبٍ جديد لا يلائم قياسها. مضَت

وإحدى يدَيْها في يد جدّها، والأخرى في يد امرأة شابة. تخيَّلتُ أنها شقيقتها بِينيه، التي كثيرًا ما حدَّثتني عنها. لم تتعرَّف خوانا إلى والدها قطّ. بينما فارقت والدتها الحياة منذ أمد بعيد. حتى إنها لم تكُن تذكرها. وعلى الرغم من ذلك، فلقد تعرَّفَت إلى والد بِينيه، ولم تحبّه. كان غجريًّا، يتحدَّث إلى بِينيه بحدَّة طوال الوقت. عندما أتمَّت ابنته الرابعة عشرة من العمر، أرغمها على أن تذهب معه حتى تبدأ في العمل. ومنذ ذلك الحين، قبل خمسة أعوام، لم تعاود خوانا رؤية بِينيه. غير أنها لم تنسَ أمرها قطّ، بل إن آمالها القليلة كانت كلها رهنًا بشقيقتها. ثابرَت في انتظارها، ومضَت تحلم بها ملكةً، ملكةً سوف تأتي ذات يوم كي تنتشلها من البؤس الذي تعيش فيه. وها هي قد عادَت، أخيرًا. وعلى الرغم من ذلك، مضَت خوانا ممسكةً بيدها، خافضةً رأسها بشدة كالباكية. لا هي التفتَت إليَّ،

ولا أنا وانتني الجرأة على أن أناديها خشيةَ أن تكون قد غضبَت مني لأن بِينيه سوف تعمل في بيتي خادمةً.

توقَّفَت سيارة الأجرة التي أقلَّتني أنا والخالة إليسا أمام ذلك الكوخ متناهي الصغر الذي سمَّته خوانا «بيتها»، فهرولتُ باحثةً عن صديقتي، صارخةً باسمها. بدا ذلك المسكن أشبه بالأكواخ الصغيرة التي كنتُ أصنعها أنا وسانتياغو قبل أعوام بالأعواد والأوراق اليابسة على سبيل اللهو. حضرَت بِينيه في استقبالنا، ومعها خوانا. في تلك المرة أيضًا لم نتمكَّن من تجاذب أطراف الحديث. لأن الخالة إليسا، التي لم تترجَّل حتى عن السيارة، قد أمرَتني بأن أركب على الفور. تبعَتني بِينيه، ثم جلسَت أمامنا في أحد المقاعد القابلة للطي، بينما راحت خوانا تبكي في صمت، وظلَّت تراقبنا ونحن نبتعد. مضيتُ أراقب بِينيه بفضول، بتلك الوقاحة التي عادةً

ما لا يسمح بها لأنفسهم سوى الأطفال وبعض كبار السن. أما هي، فراحت تتأمَّل المنظر القاحل الذي توغَّلنا فيه بالسيارة وتلفَّت برأسها من جانب إلى آخر وكأنها ترى مفاجأةً في كل تفصيلة من تفاصيل ذلك الحقل الذي كان في أوج الخريف. أذكر أنها جاءت وبين يدَيْها صندوق الحذاء الذي لم تحمل أمتعةً سواه. ظلَّت الخالة إليسا جامدةً إلى جواري. ولسبب لم أتمكَّن من التخمين به آنذاك، راحت تكتم حاجتها المضنية إلى الكلام طوال الوقت، في كل لحظة وكل موقف. وعلى الرغم من ذلك، لم يبدُ على بِينيه الضيق بذلك الصمت الثقيل الذي فرضَته الخالة إليسا طوال الطريق. في واقع الأمر، أعتقد بأن بِينيه قد تجاهلَتها، أو بالأحرى تظاهرَت بتجاهلها، كما أفكِّر الآن. عند ذاك حدَّثني هاجسٌ بأن بينهما عداوةً صريحةً.

وصلنا إلى البيت، فوجدنا كاتالينا، المرأة العجوز التي شملَت البيت بالعناية منذ فارقت أمنا الحياة، تنتظرنا خلف السياج وتحيّينا بابتسامة رصينة. توجَّهَت إليها الخالة إليسا بتلك النبرة المفعمة بالحيوية التي عادةً ما تخاطب بها الخادمات:

- «هل حضر السيد؟».

- «حضر من فوره»، أجابَت تائقةً إلى إرضائها. ثم حيَّت بِبنيه بخجل. في حين مضَت الأخيرة تتمهَّل أكثر فأكثر لتأمُّل كل ما يحيط بها. سارت ببطء وهي تتلفَّت إلى الاتجاهات كلها، وتدلي بتعقيبات عن البيت حتى أنا وجدتُها لا تليق، وأنا التي كنتُ مُجرَّد طفلة آنذاك. بدا وكأنها قد دخلَت إلى البيت سيدةً جديدة، لا خادمة. وراحَت ترسم المُخطَّطات لطلاء الواجهة، لأن مواضع الرطوبة الظاهرة والرقع التي تقشَّر طلاؤها خليقة بأن تتضاعف وسط أجواء الشتاء

القاسية، على حدِّ قولها. وبالمثل اتَّخذَت قرارها بإعادة تنسيق الحديقة، وزراعة المناطق المُهمَلة والأرض الخلاء مستطيلة الشكل التي صار إليها ملعبُ التنس المهجور منذ فارقَت أمُّنا الحياة، قبل عشرة أعوام. ثم أشادَت بِبِنيه باتساع النوافذ وأوضحَت أنها في حاجة إلى ضوء ساطع من أجل العمل والحياة. أعتقد بأن الخالة إليسا لم تكُن قد استعدَّت للردِّ على مثل هذا الأسلوب، فاكتفَت بمقاطعتها حائرة، غاضبة، وهي تقول لها:

- «ألا يمكنكِ السير بسرعة أكبر؟ ومن دون أن تفرطي في الحركة هكذا؟».

كانت بِبِنيه تسير، فتتجلَّى في لفتاتها وحركات جسدها رشاقةٌ بالغة. لم تتمتَّع بالجمال، وإن تراءى وجهها مأخوذًا بشيء عصي على التعريف: حزن مبهم، قشعريرة، بريق حنان... شيء مبهم، يبدو كالظلال. لم

تحمل من الأمتعة إلَّا قليلًا، مع أنها جاءت تخطر في ثوب شديد الأناقة، عقَّبَت عليه الخالة إليسا باحتقار في غياب بِنِيه، عندما سمعَت كاتالينا وهي تشيد به لاحقًا، فقالت:

- «يعلم الرَّبُّ مَن أهداها ذلك الثوب، وأي شيء قدَّمَت تلك التعيسة في المقابل!».

سرعان ما أمرَتها بأن تبدِّله وترتدي الثوب المُخطَّط باللونَيْن الرمادي والأبيض، ثوب العمل الذي طالما ارتدَت بِنِيه في هذا البيت.

أذكر أنني قد ضقتُ كثيرًا بتلك النبرة التي تعوَّدَت الخالة إليسا أن تتحدَّث بها عن بِنِيه. في واقع الأمر، أعتقد أنني كنتُ أضيق بأي رأي تدلي به الخالة من دون أساس عن شخص أو شيء تعرَّفتُ إليه من فوري. لا أدري كيف كانت كلماتها تعترض سبيلي دائمًا، وتحجب عني رؤية أي شخص أو شيء

يصل إلى هذا البيت. في تلك المرة، قلتُ لها بضيق:

- «ما دامت بِنِيه لا تروق لك، فلماذا أحضرتِها؟».

- «دعي عنكِ هذه الوقاحة يا آنخيلا!»، أجابتني.

- «ولكن، لماذا أحضرتِها؟»، أصررتُ على السؤال.

- «هذا شيء تسألين عنه أباك»، أجابَتني وهي تبتعد.

بعد قليل، راقبتُ أبي وهو يلقي على بِنِيه التحية، فلم أفهم كلمات الخالة. إذ تأكَّد لي بوضوح أنه يرى بِنِيه لأول مرة في تلك اللحظة. اقترب منها ناطقًا باسمها، مدليًا بكلمات ترحيب قليلة. فكَّرتُ في أن بِنِيه أيضًا تراه لأول مرة، وفُوجِئتُ بها تفقد رباطة الجأش المعهودة، وتبقى في غاية

السكون أمامه، ناظرةً إليه بدهشة وإعجاب جارفَيْن إلى الحدِّ الذي جعلها تنسى أن تشدّ على يده الممدودة إليها. حضرتُ ذلك اللقاء وحدي، ولا أدري السبب الذي جعلني أعتقد بضرورة الاحتفاظ به سرًّا.

بطريقة ما، تراءى لي ما بدر من بِينِيه في حضور أبي شيئًا طبيعيًّا، وهو الرجل شديد الجاذبية الذي تقع في حبِّه نساء كثيرات، حسبما قالت الخالة إليسا. وإن آلمني أن يُبدِي أبي كل هذا الفتور أمام الفتاة، التي لم ينتبه حتى إلى ارتباكها. أو على الأقل، هكذا جال بخاطري عندما رأيتُه يلتقط بضع رسائل كانت فوق الطاولة، ثم يمضي مبتعدًا وهو يفتحها، من دون أن يلقي علينا تحية الوداع. عند ذاك شعرتُ بالأسف لبِينِيه. لمستُ فيها هجرانًا مطلقًا. فحضرَتني رغمًا عني ذكرى الكوخ متناهي الصغر حيث يسكن قريباها، أي جدّها وشقيقتها خوانا. وإذا

خاطرة تحدِّثني بأن أمسك يدها وأدعوها إلى التعرُّف إلى البرج، مكاني الأثير في البيت. مضيتُ أجذبها وكأنني أتمنَّى لو أنسيتُها ذلك اللقاء الذي جمعها بأبي. وبينما نحن نصعد الدَّرَج، أوضحتُ لها كم يروقني الإنصات إلى صفير الريح والرجفات التي تثيرها في زجاج النوافذ من مكاني في الأعلى. وقلتُ لها كيف تعوَّدتُ أن ألوذ بالبرج كلَّما شعرتُ بالحزن أو الانزعاج، وكيف كنا نجتمع في تلك الحجرة أنا وسانتياغو رغبةً في تبادلِ الأسرار أو الشعورِ بأننا بمنأى عن الآخرين. كم مرة تناهى إلينا صوت هزيم الرعد مِن مكاننا وسط ذلك الصمت! وكم مرة تأمَّلنا الصواعق التي تتوعَّدنا مِن السماء وقد استحوذ علينا الخوف! كثيرًا ما سمعنا أصواتًا غريبة خلال الليالي الهادئة، تبدو كالتأوهات حينًا وكالهمسات الخافتة حينًا. أما أخي، الذي تعمَّد أن يبثّ الرعب في نفسي، فكان ينسب تلك الأصوات إلى

كائنات مجهولة تسكن فضاءً آخر، أو أرواح لا أجساد لها، تهيم تائهةً على وجه الأرض.

وحين فتحتُ باب الحجرة، خفتُ أن تشعر بِينِيه بالإحباط مِن أبخرة الرطوبة المنبعثة من الداخل. كانت قطع الأثاث مُوزَّعة في أرجاء الحجرة بلا أدنى تنسيق: طاولة في غاية الضخامة، وفراش تركي، وعدة أرائك من الخيزران، وخزانة ضخمة. بينما اكتستَ الأرضية كاملةً ببساط يبدو وكأن أحدًا لم يمشِ عليه قطّ. فضلًا عن قطع الزينة التي وُضِعت كيفما اتَّفق، وكأنها قد تُرِكَت هناك بصفة مُؤقَّتة. وبعد صمتٍ طويل، لم تدلِ بِينِيه خلاله بتعقيب واحد، كما توقَّعت منها، أسررتُ إليها في حزنٍ بأنني لم أعُد أصعد إلى البرج إلَّا وحيدة. إذ بات سانتياغو يعاملني كالطفلة الصغيرة، وابتعد عني ظنًّا منه بأنه قد أصبح رجلًا، واحتقارًا لكل أشكال الشراكة بيننا. وفجأة، تراءى لي أن بِينِيه

ما عادَت تنصت إليّ. توقّفَت أمام إحدى النوافذ، ومضَت ترنو إلى الخارج، إلى الليل. ثم التفتَت ببطء وكأنها تحسّ بتعب شديد، وتاهَت عيناها من جانب إلى آخر، حتى استقرَّتا عليَّ باستغراب، وكأنما لم يسبق لِبِنيه أن رأتني قطّ.

- «يجب علينا أن ننزل، فالوقت مُتأخِّر»، قالت بحدّة.

شعرتُ بخوف أمام برودة نظراتها للحظة. وإذا بتلك الحجرة تغدو عدوانية فجأة، ويبدو لي مصباحها الوحيد قاتمًا، تلك الحجرة التي طالما وجدتُها ملاذًا آمنًا على الرغم من الفوضى.

بعد قليل، وفيما نحن في طريقنا إلى الدَّرَج الرخامي الذي يفصلنا عن باقي البيت، نظرتُ إليها بخوف، فرأيتُها نابضةً بالحيوية مرة أخرى، وقد خلا وجهها من ذلك التعبير

المحفوف بالموت. عند ذاك تراءى لي ما جرى وكأنما الحياة قد هجرَتها للحظات تاركةً فيها خواء الموت. تمنَّيتُ أن أمحو من ذاكرتي تلك اللحظة العصية على التفسير بكل ما أوتيت من قوة، فاسترسلتُ في الحديث وكأن شيئًا لم يكُن.

استعادَت بِنِيه الطلاقة المعهودة فيها.

- «ما أطيب أن يكون المرء في هذا البرج. سوف نصعد إليه يومًا آخر، عندما نجد مُتَّسعًا أكبر من الوقت. أتريدين؟»، سألَتني.

تحمَّستُ للفكرة، وأعربتُ لها عن ذلك. ثم قلت:

- «في صغري كان سانتياغو يحكي لي حكايات كثيرة بالأعلى، حكايات لا يعرف كيف يختمها أحيانًا، فيتركني وأنا لا أعرف النهاية. كم كنتُ أشعر بالغيظ آنذاك! وكان كلٌّ منا يحكي للآخر أحلامه أيضًا. أتحلمين

كثيرًا؟».

- «أجل، كثيرًا جدًّا»، أجابَتني.

- «أتخبرينني بأحلامك؟».

- «لا أدري»، قالت حائرةً. «أحلامي ليسَت في غاية السعادة».

- «لماذا؟».

- «لأن أشياء سيئة تقع دائمًا».

لم تخبرني بِبِنيه بأحلامها قطّ. سألتُها ذات مرة، فأجابَتني بأنها لا تذكر أيًّا منها في تلك اللحظة. أما أنت يا سانتياغو فلقد ناديتَني ذات يوم لتخبرني بأنك قد حلمتَ ببِبِنيه، مع أنك لم تكُن تتحدَّث إليَّ آنذاك إلَّا فيما ندر. أذكر كيف تعرَّفتَ إليها وهي تضع الطعام على المائدة. كانت أول ليلة تمضيها بِبِنيه في البيت، يومَ تناول أبي العشاء معنا، على غير العادة. لم يخطر لأحد أن يقدِّم كلًّا منكما إلى

الآخر، حتى أنا لم أفكّر في ذلك. وبعد أن غادرتَ أنت المائدة، تبعتُك إلى حجرة نومك. كنتُ أهفو إلى معرفة رأيك فيها. ولكنك اكتفيتَ بالتعقيب في غير اكتراث قائلًا:

- «ليسَت جميلة».

- «حسنًا، وماذا في ذلك!»، أذكر أنني قد أجبتُك مستاءة. وسرعان ما بدأتُ أصفها لك وصفًا رائعًا، وأنقل بجرأةٍ عن الفتاة تعليقات لم تنطق بها قطّ، وردودًا ما كانت لتدلي بها يومًا، بينما رحتُ أراقب وجهك الذي بدا متأثّرًا بكلماتي. بل إنني ذهبتُ إلى حدِّ اختلاق القصص الطريفة التي قد تهمّك عن حياتها. أردتُ أن أرغمك على الشعور نحوها بالتقدير. ربما لأنها شقيقة خوانا، أو لأنني قد اعتبرتُها صديقةً منذ البداية. أو لعلّني أردتُ أن أجتذبك إليَّ مرة أخرى، حسبما أفكّر الآن، بعدما تركتَني في غاية الوحدة... ولهذا لا تتخيَّل كم فاجأتَني في تلك الليلة،

عندما انتظرتَني لدى خروجي من حجرة الطعام لتخبرني بحلمك. لم يقع شيء واحد خارج عن المألوف في ذلك الحلم. إذ رأيتَ بِبِنيه وهي تتمايل على أرجوحة، أرجوحتنا، تلك التي ما زالت مُعلَّقة بفرع شجرة عتيقة خلف البيت. مضيتَ تقترب منجذبًا إليها وكأن بك مسًّا قاتلًا من السحر. كانت ترتدي ثوبًا طويلًا جدًّا، وتسحبه خلفها على الأرض. قلتَ إن عذوبةً قوية كانت تنبعث من عينَيها الشاخصتَيْن إليك. سألتُك إن كنتَ قد رأيتَها مطابقةً لها في الواقع، فرددتَ بالإيجاب، وإن لمحتَ فيها شيئًا مختلفًا في الحلم. ثم لزمتَ الصمت.

- «أجل، الآن تذكَّرت»، تابعتَ حديثك. «كان ثوبها الطويل بالغ النعومة يتموَّج في مهبِّ الريح بصورة غريبة، لأنها ظهرَت بلا قدمَيْن. وأعتقد أن ذلك هو الشيء الذي أخافني بشدة».

- «لم تقُل لي إنك قد شعرتَ بالخوف»، قلتُ لك بتحفُّظٍ لم تفطن إليه. وهكذا عرفتُ أنك لا كذبتَ ولا اختلقتَ التفاصيل المُرتجَلة مُبدِّلًا الأشياء التي رأيتَها في حلمك، كما سبق أن فعلتَ في مرات أخرى كثيرة.

- «ألم أخبرك بذلك؟»، سألتَني بقلق. «كان ذلك هو الشيء الذي حيَّرني أكثر من كل ما عداه. لأن بِينيه تبدو في غاية العذوبة والطيبة...».

وحدها الخالة إليسا قد ارتابت في طيبة بِينيه، على ما أظنّ. أو أنها بالأحرى قد اقتنعَت بالخبث الذي تضمره في نفسها. كانت تتبعها في أرجاء البيت، وتراقبها بحذر، وتتربَّص بتحرُّكاتها وكلماتها القليلة ونظراتها كما يتربَّص الغراب... في بعض الأحيان، كانت الخالة إليسا تنصرف إلى حجرتها، فيبدو وكأنها قد نسيَت أمر بِينيه وأدركها السأم لأنها لم تكتشف أمرًا مريبًا في سلوكها. شرعَت بِينيه

تغنّي في أثناء الكنس والمسح وفرد الملاءات فوق الأسِرَّة... تعلَّمتُ بعضًا من أغانيها، التي كانت مبهجة. وكثيرًا ما انضممتُ إليها في الغناء لتؤلّف ثنائيًّا ضاقت به الخالة إليسا.

- «يا للخزي!»، قالت الخالة ذات مرة من مكانها بعيدًا عنا. ثم أمرَتنا بالصمت وهي تقترب، وأردفَت: «تبدو كموسيقى الملاهي الليلية!».

غضبَت بِنِيه من الاحتقار الذي تنطوي عليه كلمات الخالة، وإذا بالفتاة تردّ على الشتائم لأول مرة:

- «أتعرفين موسيقى الملاهي الليلية جيدًا؟».

أعتقد أن نبرة الصوت والرنين والابتسامة الساخرة هي الأشياء التي جعلَت الخالة إليسا تستشيط غضبًا إلى هذا الحدّ. تولَّد في نفسي انطباعٌ بأن شعرها القصير المُجعَّد قد انتصب في رأسها. بينما تراءى وكأن مسًّا من الجنون

قد أصاب عينَيها. وعلى الرغم من ذلك، جاء صوتها مكبوتًا، حتى كان السامع يظنّها لا تلقي إلى الأمر بالًا، ما لم يرَ وجهها وهي تقول:

- «قبل أن يمرّ شهرٌ واحد، سوف ترحلين عن هذا البيت. ثقي بذلك!».

أذكر أن بِينيه أجابتها فاتحةً فمها أكثر مما ينبغي، وقد وضعَت كلتا يدَيها على خصرها:

- «ها!».

لم تلقَ صيحتها العابرة ردًّا واحدًا.

شعرتُ بالسخط من سلوك خالتي، المُتحفِّظة المرتابة دائمًا. في بعض الأحيان، كانت تبدو كالمأخوذة بكراهية غريبة حملَتني على الاعتقاد بأن شيئًا شديد الخطورة، لا أعرفه، قد وقع في ماضي بِينيه. أما ذلك الشكّ، فلقد أيقظ الفضول في نفسي، وبعث زخمًا جديدًا في أيامي التي طالما كانت رتيبة.

ذات صباح، تأخَّرَت دُونيا روساورا عن موعد الدرس، مع أنها في غاية الصرامة والالتزام بالمواعيد. أذكر أنني لم أهتمّ بتلك الواقعة الخارجة عن المألوف. ولكنها تكرَّرَت مرةً أخرى، فأخرى. لم يخطر لي أنه ربما كان هناك سبب لمثل هذا التأخير. غير أنني، ذات مرة، تعبتُ من طول الانتظار في حجرتي، شاخصة بعينَيّ إلى الكتاب المفتوح، شاردة الذهن، فخرجتُ إلى الرواق. عند ذاك سمعتُ أصواتًا يشوبها الخوف آتيةً من حجرة المعيشة. اقتربتُ خلسة، وإذا بشيء غريزي يرغمني على التوقُّف قرب فتحة الباب المُوارَب. كانت مُعلِّمتي تتحدَّث إلى الخالة إليسا بصوت خافت. لم تتعوَّد دُونيا روساورا، القريبة من طور الكهولة مثل خالتي، أن تهتمّ بنمائم المدينة، التي لم تعدُ أن تكون بلدةً كبيرة آنذاك. كانت امرأة هادئة، طيبة. لم يحدث يومًا أن صدر عنها شرٌّ نحو الآخرين. لعلّ

ذلك هو سبب تأثُّري الشديد بالكلمات التي استطعتُ أن أصغي إليها من الحديث الذي تجاذبَت كلتاهما أطرافه ظنًّا بأنهما وحدهما:

- «لا أصدِّق مثل هذه الخرافات»، قالت الخالة إليسا بانزعاج.

- «أنا أصدِّق»، أجابت المُعلِّمة بصوت خفيض للغاية، ولكنه حازم. «راقبيها عن كثب، تلاحظي شيئًا».

- «ترهات! تلك الأمور موجودة، بالطبع، ولكنها لا تحدث هكذا كيفما اتَّفق. إنها مُجرَّد فتاة ساقطة. وهذا كل ما في الأمر. يكفي أن تري كيف تنظر إلى إنريكي وهي تضع الطعام على المائدة. يا له من شيء مُخزٍ!».

- «ولماذا لا تتحدَّثين إليه؟».

- «مستحيل! لقد أوصاه بها صديق مُقرَّب. وفوق ذلك، يقول إنريكي إنه لا ينوي أن يترك تلك التعيسة في الشارع. إنه صنف

النساء اللاتي يعرفهن منذ رحلَت أختي المسكينة».

- «ولكن شيئًا لم يقع بينهما حتى الآن، أليس كذلك؟».

- «ربما وقع في أي لحظة، فلا شيء يهمّ إنريكي، حتى القدوة السيئة التي ربما قدَّمها إلى ابنَيه».

- «أكرِّر لكِ أن ذلك ليس أسوأ ما قد يحدث. لأن الشرَّ الذي تجلبه بِينيه ليس من هذا العالم. حذار يا دُونيا إليسا، لأن عدم إيمانك ربما كان هو الباب المفتوح الذي يسمح بدخول ذلك الشرّ إلى هذا البيت».

- «لا تجهدي نفسك، فكلنا يعرف ماذا جرى، وما حقيقة بِينيه».

- «أتقصدين الحياة الرديئة التي عاشَتها. ليس ذنبها، بل إنه ذنب الغجري اللئيم الذي كان صديقها، أو عشيقها، أو أيًّا كان... أعتقد

أنه لا يوجد في هذا العالَم فعلة واحدة خبيثة يعجز عن ارتكابها! إنه المذنب الوحيد في ما جرى. كان يكبرها في العمر كثيرًا. بل إن هناك من يقول إنه والدها!».

- «لا يبدو لي شيئًا غريبًا عن أولئك الناس!».

- «ولكن حتى ذلك لن يكون أسوأ الأمور. كان شيطانًا، ولم يزَل. بل إنه ما زال يسلب عقلها. أما هي فمُجرَّد ضحية له».

- «لا تتفوَّهي بمثل هذا الشطط، رباه! يا لمخيلتك! تختلقين شرورًا خارقة للطبيعة أمام تلك الحالة المُروِّعة!».

- «هناك أمور أسوأ، أسوأ كثيرًا مما تظنّين يا دُونيا إليسا. قلتُها لكِ مرات كثيرة».

ران صمت تخيَّلتُ فيه أمارات الازدراء باديةً على وجه خالتي، بل إنني كدتُ أراها بعيني. وفجأة سمعتُ صرير مفصلات الباب،

وخشخشة السِّلال، ودبيب الخطى المقتربة. هرولتُ إلى حجرتي التي أوصدتُ بابها على نفسي. لم أرِد لكاتالينا، التي أتَت مقبلةً نحوي، أن تلمحني مختبئةً كالسارقة، هناك حيث كنتُ أختلس معلومةً تخصّني أكثر من الجميع، اقتناعًا مني بأنني أكثر من يوفّي بِينيه قدرها. خطر لي أنه كان يجب عليَّ المبادرة بالسؤال، وإرغامهما على البوح بكل الأسرار الغامضة التي تحيط بشخص الفتاة. ولكني عرفتُ تمام المعرفة أنهما سوف تحرِّفان كل ما يُخيَّل إليهما أنهما تعرفان، ولن تقدِّما إليَّ سوى الأجوبة التي تعتبرانها ملائمة لطفلة. أما تلك الأمور المُروِّعة الغريبة التي سمعتُهما يتكلَّمان عنها، فمن المُؤكَّد أنها قد تركَت في نفسي أثرًا بالغ القوة، إلى حدٍّ جعلني لا أتمكَّن من نسيانها لحظةً واحدة منذ ذلك الحين.

كانت كلمة «غجري» توقظ في نفسي صورًا

رهيبة، وتستحضر في ذهني صنوفًا من الشقاء والخطر بصورةٍ لا رادّ لها. كدتُ لا أعرف من هم الغجر آنذاك. وباستثناء أولئك الذين يمرّون بالطريق بأعداد كبيرة، ويقودون عرباتهم هائمين، لم أكُن قد رأيتُ من الغجر إلّا واحدًا يركض قرب السور الجانبي لبيتنا ذات ليلة. بينما انطلق نفرٌ من الحرس المدني يلاحقونه ويطلقون عليه النار عن بعد. فبقيتُ أرتعد وسط العتمة، ولم أدرِ يومًا إن أصابته الرصاصات أم لا. قيل إن المُهرِّبين الذين يتسلَّلون عَبْر حدود البرتغال يمرّون من هناك. ودار في خلدي أنه قد يكون واحدًا منهم. أما الصورة التي آلَمَتني أكثر من كل ما عداها، فهي تلك التي لم أرَها بعينَيّ قطّ، بل سمعتُها بأذني: كانت الصورة لبعض الغجر المراهقين، الأطفال تقريبًا، الذين تدلَّت أجسادهم من سقف قسم الشرطة، مُعلَّقين من أقدامهم رأسًا على عقب، وهم

ينزفون تحت وطأة العقاب الرهيب الذي لم تواتني الجرأة على أن أتخيَّله. وإذا بذلك الهَوْل الذي لم أشهده بعينَيّ قطّ يغدو واحدًا من الكوابيس الأكثر انتظامًا في حياتي. وفي الوقت نفسه، شعرتُ بخوف شديد من الغجر، طبعًا، وكأنهم لا يوقعون ذلك الأذى العصيّ على التصوُّر إلَّا بنا، نحن الذين لا ننتمي إليهم.

أما تلك الأواصر الوثيقة بين الغجر وبِينيه، فلقد ضاعفَت الاهتمام الذي شعرتُ به نحوها. وهكذا عكفتُ على التسكُّع في أرجاء البيت والتظاهر بلقاء الفتاة مصادفة منذ تناهى إلى سمعي ذلك الحديث.

لم أدَّخر وسعًا في مراقبتها، على الرغم من صعوبة البقاء يقِظةً وسط ذلك الغبش الرمادي الذي تجيء به الساعات وتمضي. فضلًا عن معرفتي بأن ذلك الشيء المُروِّع الذي أشارت إليه دُونيا روساورا موجود

بحقّ. لأنها تعجز عن النطق بالأكاذيب عمدًا، ولأنها تفتقر تمامًا إلى المخيلة اللازمة لنسج الأوهام حول أمر حقيقي. كانت امرأة قليلة الكلام، حتى ليبدو أن لغتها تقتصر على الإقرار بالأمور الجلية: «الطقس حار»، «تأخّر الوقت»، «المطر يتساقط»، «لم تستذكري دروسك إلّا قليلًا جدًّا»، «الطقس اليوم أشد برودةً من أمس»، كانت تلك هي العبارات التي تعوَّدَت أن تخاطبني بها خارج دروسها الثقيلة. لعلّ ذلك هو السبب الذي جعل إيماني بادعاءاتها مطلقًا، لا يشوبه أدنى شكّ. وعلى الرغم من ذلك، فبالنظر إلى الفتاة المفعمة بالبهجة التي غمرَتني بالحنان، لم أستطِع أن أتصوَّر وجود شيء مهول بهذا القدر يسكن في نفس بِنيه كما ألمحَت كلمات المرأتَين وأصواتهما الخائفة. ومع ذلك، كنتُ أراقبها وهي تكوي الثياب بهمّةٍ، أو تستغرق بهدوء في أي من الأشغال المنزلية اليومية،

وقد خلا ذهنها من الأفكار الخبيثة، فتحضر إلى ذاكرتي صورة وجهها البارد كالموت، الخاطف كوميض البرق، كشرارة تشعل النار في رأسي، ذلك الوجه الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون لهذه الفتاة النابضة بالحيوية التي تتحرَّك في أرجاء البيت، مع أنني قد رأيتُه بنفسي. أما هيئتها القاتمة الشاخصة قبالة سواد الليل، تلك الهيئة التي انمسخَت إليها الفتاةُ للحظات قصار في البرج، في الأعلى، فلقد وجدتُها دليلًا على وجود ذلك الهول الذي يُنسَب إليها. وعلى الرغم من ذلك، فلقد عزمتُ على أن ألتمس لها عذرًا، مهما يكُن ذلك الشيء. مع أن ارتيابًا مبهمًا كاد يصيبني بفتور عصي على التفسير، وبدأ يلقي بظلاله على صلتي بالفتاة في الوقت نفسه. بدأ الأمر برمته يومَ ذهبنا معها لأول مرة في رحلةٍ إلى بستان الكافور، بطلب من سانتياغو، كما كنا نفعل في الصغر.

أذكر أن الأمطار قد انهمرَت بغزارة في الليلة التي سبقَت رحلتنا، فمضينا نغوص بأقدامنا في الوحل مُتتبِّعين مجرى النهر. تقدَّم سانتياغو المسير وحيدًا، وكأنه قد نسي أمرنا. في حين مشينا واحدًا تلو الآخر، نتوسَّطنا بِينِيه، التي مضَت تلهو بالمرور على آثار قدمَي سانتياغو. أدركني التعب، وتولَّد في نفسي انطباعٌ بأن الرحلة لم تبدأ بعد، مع أننا كدنا نصل إلى أشجار الكافور. وإذا بأخي يلتفت فجأةً، ويعرض علينا أن يحمل سلة الأطعمة، كما لو أنه لم ينتبه إليها حتى تلك اللحظة. أخيرًا وصلنا والشمس تغرب خلف التلّ الذي يحجب بيتنا. بسطَت بِينِيه مفرشًا مكويًّا نظيفًا فوق الطين الذي ما زال رطبًا. ثم أخرجَت من السلة وعاء الحساء الأبيض، ونزعَت غطاءه، فتناهى إلى أسماعنا شيءٌ لم يصل إلى حدّ القهقهة. كان سانتياغو يحاول أن يلعب دور الرجل.

- «وحدها بِنِيه قد يخطر لها أن تُحضِر إلى الحفل حلوى الحليب!»، قال بطلاقة، وبشيء من الوصاية الأبوية تجاه الفتاة.

أثار في نفسي شعورًا مزعجًا بالغرابة، ففي تلك اللحظة تراءى لي رجلًا، ولم أرَ أخي المعهود. ظلَّت بِنِيه تُخرِج من السلة صحون الحلوى والملاعق والكعك والشكولاتة... بدأنا نتناول الطعام والليل يكاد يخيِّم. أما الضوء الرمادي الآتي في تلك اللحظات، فلقد ترامى على وجه الفتاة المُطوَّق بالمنديل الأحمر الذي عقصَت تحته شعرها الأسود المُجعَّد. لزمَت الصمت، وإن كانت عيناها تبرقان كلَّما نظرَت إلى سانتياغو. ليس الأمر أن نظراتها كانت تخبو كلَّما وجَّهتها إليّ، بل إنها لم ترمقني ولو بنظرة واحدة، كأنها لم تنتبه لحضوري. وكأنني لستُ شريكةً بحقٍّ في ذلك اللقاء الذي ترقَّبته بحماس جارف. ولكن في النهاية، وبينما نحن عائدون، اضطرّ كلاهما أن يوليني انتباهه، إذ

تعثَّرتُ وسقطتُ أرضًا، مع أنني لم أتعرَّض للأذى تقريبًا. هبَّت لمساعدتي الدموع العصية على الاحتواء، فبكيتُ بكل المرارة التي تراكَمَت في نفسي ونحن نتناول الطعام. لم أدرِ ماذا يجري هناك، بينهما. مع أن شيئًا واحدًا لم يقع في ظاهر الأمر. إن هو إلَّا صمت ثقيل تناثرَت خلاله التعليقات التافهة. وعلى الرغم من ذلك، فلقد عرفتُ بالبداهة أن السبب في شعوري بالاستياء لم يقتصر على ذلك النسيان الذي أبداه كلاهما نحوي وهما يتبادلان النظرات المُطوَّلة المتواطئة. كان هناك سبب آخر، أمر مُشوَّش ضبابي يوقظ في نفسي مزيجًا من الغمّ والنفور، شعرتُ وكأنه انبعاثٌ مَرَضيٌّ آتٍ مِن الفتاة. اشتدّ ذلك الشعور الكريه في مناسبتَيْن. مرةً عندما رأيتُ وجه الفتاة قاتمًا، غائبًا، بلا أدنى مُبرِّر ظاهر. ومرةً أخرى، عندما ظهرَت على وجهها أمارات الموت التي لم يبدُ أنها تنتمي

إلى الفتاة. وكأنها قناع مُروِّع فُرِض عليها من الخارج. وكأنها شيء لا يمكن أن ينبع من سريرة بِينيه التي ظننتُ أنني أعرفها. في تلك اللحظات، كانت نظرتها المُثلَّجة تكتسب القدرة على أن تستحضر حولنا فضاءً آخر، فضاء خاويًا مُنذِرًا بطريقة مُروِّعة.

سرعان ما عرفَت بِينيه أنني لا أبكي بسبب الأذى الذي كان يُحتمَل أن يصيبني من جرَّاء السقوط، كما تأكَّد لي. ولكنها اقتربَت مني وحاولَت أن تواسيني بحنان. مسحَت الوحل عن ركبتَيّ بمنديل، ومضَت تحدِّثني وكأنني مُجرَّد طفلة صغيرة، بنبرة شديدة الاختلاف عن تلك التي تتحدَّث بها إلى سانتياغو، لأنه صار يبدو إلى جوارها رجلًا، بصوته الجديد ومظهره الجديد. مُتحمِّسًا، اقترح أخي أن يحملني هو وبِينيه في ما بينهما على «عرش الملكة»، فتشابكَت أيديهما ونظراتهما، وقدَّما إليَّ فوق ذلك مقعدًا وثيرًا.

أقول «فوق ذلك» لأنني شعرتُ بأن كل ما يتّصل بشخصي يشغل عندهما موقعًا ثانويًّا. وفي غمرة الغضب، حدَّثني ارتيابٌ بأن الانتظار «إلى ما لا نهاية» سيكون هو الموقع الذي أشغله في تلك المجموعة، بصورة قاطعة.

وعلى الرغم من ذلك، ففي الليلة نفسها صرتُ أنا البطلة الوحيدة لشيء ما زلتُ لا أعرفه بحقّ حتى يومنا هذا. في كثير من المرات، وبينما الخوف يشلّ أطرافي وسط ملاءات الفراش، استطعتُ الهرب من تلك الظلال المبهمة الخبيثة التي تمايل في أرجاء حجرتي. كنتُ ألوذ بسانتياغو، فيسمح لي بالنوم إلى جواره. ليلتذاك، بدا كل شيء راقدًا في هدوء. وهبَّت ريحٌ ناعمة وديعة. لم تنقطع الكهرباء، كما كانت تنقطع في ذلك البيت مرات كثيرة. لم يصلني من الخارج إلَّا صوت مألوف، صوت الأغصان الجافة لشجرة ورد تخدش نافذتي. ولكنها أثارت

في نفسي خوفًا مُروِّعًا لم أقوَ على مقاومته. خرجتُ من حجرتي على أهبة الاستعداد لطلب المساعدة من سانتياغو، فوجدتُ بريقًا آتيًا من أقصى الطرف الآخر يضيء الرواق. وجدتُ باب حجرة بِيِنيه مفتوحًا، ومصباحها مُضاء. اقتربتُ ببطء، وأنا أكتم كل خطوة من خطواتي كيلا أُحدِث أدنى صوت. في تلك الحقبة تعلَّمتُ كيف أتحرَّك في أرجاء البيت وكأنني شبح حقيقي. مضيتُ كالتمثال المُتحرِّك، عاجزةً عن التراجع، سائرةً صوب المصباح الذي أضاءته بِيِنيه. وإذا بي أقتحمُ حجرة الفتاة مباشرةً كمن يريد أن يباغتها. ولكنني لم أجد أحدًا هناك، حتى الفراش كان مُرتَّبًا.

فتحتُ باب سانتياغو ونفسي ملأى بالمخاوف، وهاجسٌ يحدِّثني بشيء قاتم، مبهم. كان أخي قد استغرق في النوم ممسكًا بكتاب على ضوء المصباح المُضاء.

- «ماذا يجري؟»، سألني مذعورًا حين سمع صوتي.

- «أنا خائفة»، أجبتُه وأنا أتمنَّى لو أنه يتذكَّر زمنًا مضى، عندما كنتُ أوقظه في الليل بالعبارة نفسها. ولكنه في تلك المرة أجابني بضيق:

- «أما زلتِ تشعرين بالخوف؟ مع أنكِ صرتِ كبيرة في العمر!».

- «أشعر بالخوف على بِينيه. يبدو لي أن مكروهًا قد وقع لها في هذه اللحظة»، قلتُ له في محاولة مني لتبرير موقفي، وقد أيقنتُ بأن تلك الكلمات سوف توقظه أخيرًا.

- «ماذا تقولين؟!»، سألني منزعجًا، وفي الوقت نفسه أبدى شعورًا جارفًا بالقلق.

- «بِينيه ليسَت في حجرتها»، قلتُ ببطء وكأنني أفضي إليه بشيء في غاية الخطورة.

- «يا للحماقة!»، أجابني. «لعلّها في الحمام».

- «كلا، ليسَت هناك، ولا في الحديقة. لقد فتَّشتُ عنها في كل مكان. حتى البرج. لم أعثر عليها في أي مكان».

- «ولماذا يهمّكِ أين تكون بِينيه؟»، سألني عكر المزاج، ثم أردف قائلًا: «اذهبي إلى الفراش ودعي عنكِ التلصُّص عليها، وإلَّا أصابكِ خوفٌ شديد».

- «لماذا؟».

- «لا شيء يا صغيرة. تبدين كالبلهاء».

أذكر أن حدَّته في الكلام قد جرحَتني، فقلتُ له من دون أن أفكِّر في الأمر كثيرًا:

- «الأمر أنك قد وقعتَ في حبّ بِينيه! لهذا غضبتَ بشدة، لأنك أكثر مني انشغالًا بمعرفة مكانها».

- «لا تتفوَّهي بحماقات، هيا. لا يعنيني ذلك

مطلقًا. كما أنني أعرف مكانها، ولا يهمّني في شيء».

- «أتعرف مكانها؟ أين هي؟».

- «مع بابا».

- «أنت أحمق!»، صحتُ به. «بابا ليس كما تقول الخالة إليسا!».

- «حقًّا؟ ابحثي عنها في فراشه إذن، لو كنتِ تجرئين!».

عند ذاك انصرفتُ مستاءة، شاعرةً بضيق مفاجئ. تذكَّرتُ وقع حذاء بِينيه ذي الكعب العالي وهو يتردَّد في الرواق ليلتها، وتذكَّرتُ الخالة إليسا وهي تستوقفها قريبًا جدًّا من باب أبي الموصد.

- «ناوليني الصينية!»، أمرَتها الخالة. «يجب عليكِ ألَّا تدخلي إلى هذه الحجرة أبدًا»، قالت بالاستبداد المعهود فيها.

- «حقًّا!»، أجابت الفتاة مرفوعة الرأس، ناظرةً إليها من أعلى بوقاحة.

كان موقفًا عديم الأهمية، وقع في حضوري قبل ساعتَيْن فحسب. كما تذكَّرتُ بِنِيه وهي تتصرف حانقةً، وتتمايل فوق ذلك الكعب العالي جدًّا بتلقائية مدهشة، من دون أن تلقي تحية الوداع.

وعلى الرغم من حداثة سنّي، فلقد استطعتُ أن أفهم مغزى ذلك الحظر على أكمل وجه. لاحظتُ كيف تسعى الخالة إليسا إلى إبعادها عن والدنا، وكيف تراقبها إن اقتضَت الضرورةُ حضورَ بِنِيه أمامه. والآن أتساءل بدهشة إن كانت قد وقعَت في حبّه. في واقع الأمر، لم أدرِ على وجه التحديد ممَّا يتألَّف شعور الحبّ، الذي بدا لي وكأنما يغشاه الضباب. وكأن مَن أصابه الحبُّ استحوذَت عليه نزوةٌ مجهولة عصية على السيطرة. وجدتُ الحبَّ شيئًا يلفّه الغموض، يكاد

يكون شيطانيًّا. وإن تراءى لي محاطًا بهالة من البراءة تُخلي مسؤولية العشّاق عن أفعالهم.

مضيتُ أسأل نفسي إن كان والدنا قد وقع في حبّها أيضًا. أدركتُ أنني أكاد لا أعرفه، إذ تعوَّد الإكثار من الرحلات التي تستغرق شهورًا في بعض الأحيان. لم تكُن أسفاره لدواعي العمل، وإنما المتعة، كما أكَّدَت الخالة إليسا وهي تنطق بكلمة «المتعة» بتشديد مَرَضي أثار في نفسي الخوف وجذبني، بطريقة ما. ولكني رأيته شيئًا قاتمًا، هوائيًّا، لا ضرورة له. أذكر أن والدنا قد تعوَّد تناول المشروبات الكحولية في أي ساعة من ساعات الليل والنهار. وفي أكثر من مناسبة، لاذ والدي بحجرته لئلّا نراه مخمورًا لدى عودته إلى البيت، عندما وجد نفسه عاجزًا عن إخفاء السُّكر. بطريقته الخاصة، حاول أن يحافظ على صورته الوقور أمامنا، أمام ابنه وابنته، من دون أن يدري أن

الحالة إليسا لن تسمح بذلك. والآن، أحاول استحضار ذكراه الطيبة، كما يفعل المرء عادةً كلَّما استحضر ذكرى أولئك الذين فارقوا الحياة، فيخطر لي أنه ربما شقي كثيرًا بموت زوجته، أمّنا، إلى حدٍّ جعله في حاجة إلى اختلاق الملاذات والحيل التي يستند إليها طوال الوقت. في بعض الأحيان، أفكِّر أننا قد أثرنا في نفسه شعورًا بالخوف، إذ بدا وكأنه يولّي هاربًا منا. لم يدرِ كيف يعاملنا، دعْ عنك أن يدري كيف يربّينا. أو ربما كان ذلك الهجران الناشئ عن الإهمال قد استمرّ تحت وطأة القصور الذاتي فحسب. ولكن والدي بدأ يعود إلى البيت في ساعة مُبكِّرة في تلك الأيام، ويتناول العشاء معنا. تراءى لي كالضيف. حتى المائدة صارت تُزيَّن بطريقة احتفالية، فتُرصَّع بأزهار اللؤلؤ البيضاء أحيانًا، أو بطقم صحون جديد لم يُستعمَل من قبل، أو بدورق مرهف من الزجاج الضبابي.

وبطبيعة الحال، كلنا رأى يدَ بِينيه وجرأتها في تلك التفاصيل. كانت تحوم حولنا وهي تضع الصحون والصواني وترفعها، وتبتسم بين الحين والآخر بشفتيها المُزيَّنتَيْن بالطلاء الأحمر الصارخ.

غير أنني أبيتُ تصديق ادعاءات سانتياغو. إذ حدَّثتَني الشكوك بأنه قد كذب حتى أتركه ينام، ولأنه يتلذَّذ بزرع الخوف في نفسي، كما كنتُ أعرف بالفعل. دخلتُ إلى حجرتي وقد قرَّرتُ أن أخلد إلى النوم وأنسى تلك المغامرة التي لا معنى لها. وددتُ لو أقنع نفسي بأن بِينيه كانت وحدها آنذاك، تتجوَّل في الحديقة، أو في أي مكان آخر، كما هو دأبها كلَّما أصابها الأرق. لم أُضِئ المصباح، ولكن شيئًا غريزيًّا قد حملني إلى النافذة في قلب العتمة. مسحتُ بيدي البخار عن رقعة من زجاج النافذة. ولكن أحدًا لم يكُن في الخارج. إن هو إلَّا صمت كثيف، عميق،

تراءى نابعًا من أعماق الأرض. وفجأة، لمحتُ رجلًا ينظر إلى الداخل، وكأنه ظلٌّ شاخصٌ تحت نور القمر كسائر الظلال. وخلف السياج، ظلَّ الرجل محتفظًا بذلك السكون الصلب الذي تتَّسم به الجمادات. خطر في بالي الغجري، عشيق بِينيه. عرفتُ أنه هو. لم أستطِع أن أتبيَّن لون بشرته ولا قسمات وجهه في الليل. أما كَوْنه هو الرجل الغجري، فلقد رأيتُ ذلك بوضوح لا يدع مجالًا للشكّ. ظهر بقميص أبيض وبنطال داكن، غير أنه لم يتدثَّر بشيء آخر يقيه بردَ الليل. بدا مُتقدِّمًا في العمر، متعبًا، بينما تهدَّلَت ذراعَاه بطول جسده وكأنه قد تخلَّى عنهما. وعلى الرغم من ذلك المظهر، فلقد عرفتُ أنه ليس بشرًا بالتحديد، وإنما شيئًا آخر، شيئًا عصيًّا على التصوُّر لا أملك أن أسمّيه بكلمة واحدة. مضيتُ أراقبه وقد شُلَّت أطرافي خلف الزجاج، فلم أجرؤ على الإتيان

بأدنى حركة. فكَّرتُ في اختفاء بِبِنيه مرة أخرى. أتراها في حجرتها؟ الأرجح أنهما كانا معًا. ذلك هو المُبرِّر الوحيد لغيابها. قرَّرتُ أن أطلّ على الرواق لأرى إن كان مصباحها قد انطفأ. ولكني بقيتُ هناك جامدةً، عاجزةً عن الحركة. لم أتمكَّن من تحويل ناظري عن الغجري، وعن المكان المحيط الذي بات منظرًا قاتمًا شبحيًّا في حضوره، ذلك المكان الذي غادرَته بِبِنيه من فورها. كنتُ على يقين من ذلك. بقيتُ أنتظر أن ينصرف بين لحظة وأخرى. وإن لم يبدُ الغجري آتيًا من أي مكان، أو ذاهبًا إلى أي مكان. وكأنما الأرض قد انشقَّت بصورة غامضة فانبثق من جوفها وبقي هناك، كالنبتة. لا أدري كم ترقَّبتُ خلف النافذة وقد استحوذ عليّ خوفٌ لا يُحتمَل، وأسرني ذلك المشهد الجامد الذي ارتبط عندي بالفتاة ارتباطًا حميميًّا.

وأخيرًا، تمكَّنتُ من مغادرة مكاني خلف

زجاج النافذة. رحتُ أقترب من الباب بخطى بطيئة، وأنا أرزح تحت ذلك الحِمل الرهيب الذي جاءَت نظرة الغجري مُثقَلةً به. أحسستُ به يراقبني أنا، على الرغم من الجدران والعتمة التي غرقَت فيها حجرة نومي. وفجأة، ميَّزتُ وقع خطوات حذرة تقترب في الرواق. كان سانتياغو. تعرَّفتُه من فوري. فتح أخي الباب مُتكتِّمًا، وحدَّثني بصوت خفيض. لم أسمع كلماته، ولكني احتضنتُه بقوة وأنا أكاد أفقد عقلي، وشعرتُ بأنني قد نجوت.

- «ماذا بك؟»، سألني بقلق، ثم أردف قائلًا: «إنكِ ترتجفين!». دفعتُه صوب النافذة ردًّا على سؤاله.

- «انظر!»، قلتُ له وأنا أشير إلى السياج.

- «إلامَ تريدين مني أن أنظر؟».

- «كان هناك! الغجري! عشيق بِينِيه!»،

صحتُ في إحباطٍ عندما رأيتُ أنه قد اختفى.

- «ألم يكُن حلمًا؟»، سألني مندهشًا. ثم أوصد الشباك وأضاء المصباح قائلًا: «ليس لبِينِيه عشيق. لقد أخبرَتني بنفسها».

ما لبث أن نذر نفسه بالكامل للتهدئة من روعي. أعتقد بأنه لم يجد صعوبة بالغة في ذلك. عندما غادر الحجرة، كنتُ أنا قد استغرقتُ في النوم. وعدتُه بألَّا أنبس بكلمة واحدة للخالة إليسا أو غيرها عن غياب بِينِيه. لقد حضر سانتياغو لهذا على وجه التحديد، لحمايتها. بينما اتَّخذتُ قراري في تلك اللحظات، بعد أن عرفتُ بأمر ذلك الحضور الذي بدا أنه يترقَّبها، بأن أساعدها على الرغم من كل العقبات.

في اليوم التالي، مضيتُ أركض في أرجاء البيت من جانب إلى آخر. شعرتُ بحاجةٍ تدفعني إلى النظر إلى بِينِيه، وكأن صورتها

مرآةً قادرة على أن تبدِّد كل الظلمات التي ترافقها. ولكني وجدتُها في حجرة الغسيل وقد شمَّرَت عن ساعدَيْها، بينما احمرَّت يداها من برودة الماء ولذوعة الصابون. وفيما هي على تلك الحال، كانت تبدو امرأة أرضية، بلا أسرار، مستغرقة بالكامل في أحد الأشغال المنزلية العادية. حيَّتني بابتسامة صادقة وهي لا تكفّ عن الغناء في تلك الساعة المُبكِّرة للغاية. أبدَت من الحيوية والبهجة ما يستحيل أن تُظهِره امرأة قضت ليلتها ساهرةً، منغمسةً في شدائد مظلمة لم أفلح في التخمين بها. أذكر أنني قد سألتُها آنذاك:

- «هل نمتِ جيدًا؟».

لا أدري لماذا، ولكني ظننتُ سؤالي خليقًا بالكشف عن أفكاري: «أنا أعرف كل شيء»، «لقد رأيتُه، وأنتِ تعرفين أنني أعرف». ولكن الواضح أن تلك الأمور التي أيقنتُ بها لم تصل إلى الفتاة.

في وقت لاحق، بعد الانتهاء من دروسي، خرجتُ إلى الحديقة. كنتُ أعرف أن خوانا عادةً ما تمرّ من هناك وهي ذاهبة إلى المدينة في مثل هذه الساعة. تمنَّيتُ لو تستطيع أن توضح لي أمرًا بشأن شقيقتها. مضيتُ أترقَّبها وقد زججتُ برأسي بين اثنين من قضبان السياج. ورحتُ أتلفَّت حولي بحذر، لعلّ الزيارة الليلية التي اكتشفتُ أمرها قد تركَت أثرًا ما. وإن لم يكُن هناك شيء، بطبيعة الحال. وأخيرًا وجدتُ خوانا تقترب بخطى في غاية البطء، وتتلهَّى بالتقاط أشياء من الأرض لم أتبيَّنها. من حسن الحظ أنها جاءت وحيدة. أشرتُ إليها بيدي في بهجة، فجاءت نحوي بجديَّة بالغة، ولم تردّ ابتسامتي أو تحيتي بمثلهما. جاءت ترتدي ثوبًا أخضر قاتمًا يشبه مريول المدرسة، وقد تدلَّت من ذراعها سلةٌ قديمة.

- «إلى أين تذهبين؟»، سألتُها، وأنا أعرف

تمام المعرفة أنها ذاهبة إلى المدينة لتستجدي الطعام والثياب من بابٍ إلى باب.

- «لقضاء بعض الأمور»، أجابَتني بجفاء وهي تقف على الجانب الآخر من السياج وتنظر إليَّ مستفهمةً بعينَيها الصغيرتَين المحزونتَيْن. ومن خلال القضبان السوداء، ظهر على وجهها كل ما يتكبَّد السجناء من الهجران. أما تلك الصغيرة -التي هُجِرَت لعالَمٍ كان كل ما فيه محظورًا عليها- فلقد ظلَّت هي الصورة الحية للألم عندي أمدًا طويلًا. لطالما ذكرتُها متعبة، شاخصة بعينَيها، مستغرقة في ذاتها. حتى شعرها لم يُسمَح لها بأن تزهو به. لم تعرف صديقة غيري. كانت تنتظرني وهي تتغنَّى بأغنية في بعض الأحيان، إشارةً إلى حضورها، أو تطلّ برأسها الحليقة من خلال المثلثات التي تشكِّلها أحجار الدربزين.

- «ماذا تريدين؟»، سألَتني.

- «لا شيء مُحدَّد. هل يمكننا أن نتكلَّم لبعض الوقت؟».

- «عندي مشاغل كثيرة».

- «قليلًا وحسب»، أصررتُ.

- «عمَّ تريدين أن نتكلَّم؟»، سألَتني على مضض.

- «لا أدري... هل ستحضرين لرؤية بِينيه؟».

هزَّت خوانا كتفَيْها متظاهرة باللامبالاة أمام سؤالي، مع أنها شعرَت بغير ذلك. بدَت مستاءة، ولكنها كادت تبتسم لسماع اسم شقيقتها.

- «أتقضين وقتًا طويلًا معها؟».

- «نعم»، أجبتُ خائفة، علمًا مني أنني قد أجرح مشاعرها. لأن ذلك على وجه التحديد، أي قضاء الوقت مع بِينيه، كان

أعزّ أمنياتها في الأعوام الأخيرة. عندئذ تذكَّرتُ كل هذه الأحلام التي مضَت خوانا تنسجها بصوت مسموع، أمامي، الأحلام التي ارتبطَت كلها بشقيقتها بِبِنيه ارتباطًا وثيقًا. وها هي ذي أحلامها قد تداعَت. فلم يعُد الأمل يحدِّثها بأن شقيقتها سوف تأخذها إلى المدرسة، وبأنها سوف تتعرَّف إلى الصديقات اللاتي كانت خوانا تنوي أن تقدِّمني إليهن، على حدّ قولها، كيلا أبقى في تلك العزلة المطبقة. لن تتمكَّن من ارتداء الأثواب رائعة الجمال، ولا إطالة شعرها حتى يبلغ الخصر. بدَت غاضبةً مني، وكأنني مسؤولة عن تحطيم آمالها أيضًا، بطريقة ما. أردتُ أن أصرف ذهنها عن تلك الخواطر، فسألتُها:

- «أتريدين أن نلعب لعبة؟».

- «لا يهمّني ذلك. اليوم لم يعُد شيء واحد يهمّني»، أجابت.

- «ولماذا اليوم؟ هل جرى لكِ شيء؟».

- «كلا. لا شيء. ولكن هكذا حالي الآن. وغدًا لا أدري كيف أكون».

وجدتُها فاترة، بعيدة، أشدّ جفاءً من أي وقت مضى. وفجأةً، رميتُها بالسؤال الذي أردتُ أن أطرحه منذ البدء:

- «أتعرفين عشيق بِينيه؟»، سألتُها، فكسرتُ تلك المراسم العبثية التي وقعنا في حبالها.

- «ليس لها عشيق»، أجابَتني.

- «سمعتُ أن لها عشيقًا. وأنه غجري».

- «ولكنها لم تعُد معه».

- «هل تخاصما؟».

لزمَت خوانا الصمت. ولكنها ما لبثَت أن قالت، وقد ارتسمَت على وجهها أمارات الغموض:

- «كلا».

- «أتعرفينه؟»، أصررتُ على السؤال.

- «أجل».

- «كيف يبدو؟».

- «كان في غاية الوسامة. والخبث أيضًا».

- «لماذا؟ هل كان يضربها؟».

- «كلا. بل كان يصنع بها أمورًا أسوأ من ذلك».

- «أي أمور؟».

أذكر أنني قد طرحتُ عليها ذلك السؤال بقلق، وأنني قد شعرتُ بالسخط عندما انطلقَت ضاحكةً بدلًا من أن تجيبني، ثم قالت:

- «لا أستطيع أن أخبرك أنت بهذا. أنت، لا!».

فصحتُ عليها:

- «تبدين كالمرأة العجوز!».

أو على الأقل هكذا رأيتُ لحظتها في لفتات خوانا وابتسامتها الحافلة بالأسرار المفهومة ضمنًا، تلك الابتسامة التي تحوَّلَت رويدًا رويدًا إلى قهقهة فاضحة، فقاطعتُها بحدَّةٍ قائلة:

- «لقد حضر لرؤيتها ليلة أمس، أتدرين؟ رأيتُه بنفسي. كان رجلًا غجريًّا يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود».

سمعَت كلماتي، فخرسَت. واكتسب وجهها جمودًا مُتوتِّرًا. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى صرخَت في وجهي وهي تنظر إليَّ مذعورة:

- «كذب! أنت كاذبة! لم تريه!».

- «بلى، رأيتُه! كان هناك، خلف السياج، حيث تقفين أنتِ في هذه اللحظة!».

عند ذاك اقتربَت وهي تكشف لي عن

وجهها الودود أخيرًا، ثم قالت:

- «كان يرتدي ثيابه بتلك الطريقة. ولكن لا يمكن أن تكوني قد رأيتِه، لأنه قد مات. شنق نفسه خلال الصيف الجاري».

لا أدري أي شيء قد ارتسم على وجهي حتى تأخذ خوانا بيدي، وتضمّها بكل ما تملك من حنان غامر، قائلة:

- «لا تخافي. لن يقع مكروه لأحد. أنا سوف أحميك».

استغرقتُ في النظر إليها ذاهلة، عاجزة عن النطق بأي شيء، في انتظار أن تدلي تلك الطفلة الهشّة، العزلاء، بتفسيرٍ مستحيلٍ لذلك الذي وجدتُه سرًّا يكتنفه الغموض، لا يمكن إنكاره. ولكنها آمنَت بصحة الأمر، كما عرفتُ من فوري.

- «أتريدين أن أخبرك بسرّ؟».

حتى هذه الكلمات عجزتُ عن الردّ عليها، ولكني أردتُ أن أعرف سرَّها بطبيعة الحال. لا بدّ أنها قد قرأت تلك الرغبة في عينَي، فتابعَت الحديث قائلة:

- «شقيقتي ليسَت كالباقين. ولكن، أقسمي لي بأنك لن تخبري أحدًا بما سوف أقول. هيا! أقسمي!».

ظلَّت تنتظر أن أقسم أمامها قسمًا صادقًا، ثم تابعَت:

- «في الليل، تتحوَّل عينا بِنيه. لقد رأيتُهما بنفسي. يبدو لي أن عينَيها تصيران من البلّور. ولكنه بلّور من عالَم غير العالَم، يمكِّنها من رؤية كل شيء، حتى الأشياء الخفية. هكذا قالت لي بنفسها، أتدرين؟ وقالت لي إنها ترى أمورًا لا يمكن التحدُّث عنها في بعض الأحيان».

- «هل كنتِ معها وهي في تلك الحالة؟».

- «مرة واحدة فحسب. وشعرتُ بخوف جارف، إلى الحدّ الذي جعلني أنطلق راكضة عَبْر الحقل حتى وصلت إلى النهر، وهناك بِتُّ ليلتي كاملةً».

- «هل أستطيع أن أراها أنا أيضًا وهي في تلك الحالة؟».

- «لا أظنّ. فهي لا تسمح لأحد بأن يراها وهي في تلك الحالة سوى الرجال. أما أنا، فلأنني شقيقتها».

- «هل تسمح لسانتياغو بذلك أيضًا؟».

- «كلا. سانتياغو لم يصبح رجلًا بعد»، أجابَتني وقد ظهر عليها بوضوح أنها تحاول التهدئة من روعي، وإن أبدَت في الوقت نفسه شيئًا من الاحتقار نحو أخي.

كانت خوانا تتحدَّث إليَّ بتلك الطريقة، بصوتها المُقنِع ووجهها وجسدها الذي يتوتَّر بالكامل، بينما تُبدِي لي حدَّةً تنتقل إليَّ

بالعدوى وتنفخ الروح في تلك الخيالات التي تنسجها، مهما كانت، فيثور في نفسي ارتياب طفيفٌ للغاية بشأن الأمور التي تريد مني أن أصدّقها. وفي وقت لاحق -عندما تغيب بعيدًا، وأغادر أنا مكاني قرب السياج، وأمضي وحيدة- يوقع بي في الأسر شبحٌ آخر، شبح العقلانية، وكأنما الواقع لا يصحّ ما لم تقرّ به الأغلبية. في تلك المرة، ظهر لي الشبح على هيئة ارتياب. أجل، لعلّ سانتياغو هو المذنب، ولمَ لا؟

أليس من الممكن أن تكون أنت يا سانتياغو الذي لعبتَ دور ذلك الطيف أمامي؟ ما كنتَ لتجد في ذلك صعوبة بالغة، وأنت مختبئ في البُعْدِ عني، مستندًا إلى ذلك الخوف الذي طالما استحوذ عليّ، كما عرفتَ أنت جيدًا. أذكرُ تلك الأشكال المظلمة التي كنتَ تطلعني عليها وتفسّرها من أجلي، فتبحث لهذا الغرض عن مواقع منعزلة، تائهة في الليل،

حيث لا يمكن لأحد أن ينقذني. ما زلتُ لم أنسَ تلك المرة حين مضيتَ سائرًا بحزم أمامي، وقدتَني لتلعب لعبتك المظلمة، منجذبًا إلى ذلك الحافز العبثي الذي يجعلك تباغت حيوانات الخلد في أوكارها. ولكني لا أذكر الكلمات المُقنِعة التي قلتَ لي حتى أتبعك ليلًا في أرجاء البستان كلها، وسط شجيرات الخرشوف الرمادية التي تحفّ الطريق. كدنا نصل إلى الأسلاك الشائكة، وإذا بك تلتفت فجأة ناظرًا إليَّ بعينَيْن أصابهما مسٌّ من الجنون، فاتحًا فمك إلى الحدّ الذي جعلك تنمسخ وتغدو في عينيَّ وحشًا من الجحيم. برزَت من فمك أنياب تليق بمصاصي الدماء، صنعتَها بيدَيْك لتؤدّي ذلك الدور الذي أهديتَني إياه. لم يسمع صرخةَ الرعبِ التي أطلقتُها أحد، كائنًا مَن كان. حتى أنت لم تسمعها، بل إنك ما لبثتَ أن مضيتَ مبتعدًا، من دون أن تلقي إليَّ بالًا. أوليتَني ظهرك، وهجرتَني

للارتياب في هويتك الحقيقية. أما ذلك الأمل الواهي الذي حدَّثني آنذاك بقدرتك على أن تلعب تلك اللعبة، لعبة الظهور قرب السياج، فما لبث أن تلاشى. إذ عرفتُ منذ البدء، بطريقة ما، أن ذلك الخيط لم تحرِّكه يداك، بل يدان أخريان، أشدّ قوةً بما لا يُقاس، لم أعرف ماذا أطلق عليهما قطّ.

كنتُ أنا وسانتياغو «الطفلَيْن»، وبقينا على تلك الحال زمنًا طويلًا. لأن اليُتم قد أثار غريزة الحماية في نفوس النساء اللاتي أحطن بنا، ومن بينهن الخالة إليسا. كانت أغلب رغباتنا تجاب في الحال. أذكر أن أعظم أمنياتنا تمثَّلت في الخروج من البيت، فزرنا المدينة، وتردَّدنا إلى السينما مرات قليلة جدًّا، وحضرنا المهرجانات، وذهبنا أكثر ما ذهبنا إلى الحقول القريبة. ظلّ الآخرون يطلقون علينا «الطفلَيْن»، مع أننا قد كبرنا. التحق سانتياغو بالمدرسة. أما أنا، فبقيَت

حياتي على ما كانت عليه. بينما تولّت بِينيه ترتيب نزهاتنا والإشراف عليها، بطبيعة الحال. وإن ظهر أنها لا تهتمّ إلّا بمكان واحد: بستان الكافور. لم تعُد رحلاتنا تمتُّ بأدنى صلةٍ إلى سابقاتها، تلك الرحلات المشرقة المبهجة، عندما كنا نسلِّم أنفسنا لمشاغل بريئة. مع بِينيه، اختلفَ كل شيء. وبات سانتياغو يدير لعبته الخاصة، منعزلًا، بعيدًا عن اللامبالاة التي تلقى بها الفتاةُ لَفَتَاته وكلمات الإعجاب التي يدلي بها، وإن أظهرَت أمامه دلالًا آليًّا، ربما كان هو أفضل الأدوار التي لعبَتها بِينيه. لم أجد لي مكانًا في تلك العلاقة، فاكتفيتُ بمراقبتهما. رأيتُ كيف يسلِّم أخي نفسه جسدًا وروحًا للعبة أخرى في غاية الاختلاف، كما تجلَّى في تفاصيل الغواية التي راحت بِينيه ترمي بها أخي. ما زلتُ أذكر بوضوح تلك التي كانت آخر رحلة لنا.

تأخَّرَت بِينيه، واستغرقَت وقتًا طويلًا في

إعداد الوجبات المُعقَّدة كالمعتاد. ذهبتُ إلى الظنِّ بأنها تتعمَّد ذلك، وبأن لديها مصلحة خاصة في أن يخيِّم الليل علينا ونحن في بستان الكافور، فلطالما تأخَّرت بينيه، وإن انتهرَتها الخالة إليسا بعنف وأمرَتها بأن تعود عند المغيب. أما سانتياغو، الذي نفد صبره، فمضى يسنّ عصًا بمديته لاهيًا. بدا من الواضح أنه في مزاج سيئ. حدَّقتُ إليه بوقاحة، وأنا جالسة إلى جواره، علمًا مني أن لي كامل الحقّ في انتظار الفتاة أنا أيضًا. وإذا هو يسألني بحدَّة، فجأة:

- «هل أنتِ آتية معنا؟».

وجدتُ سؤاله مهينًا.

- «بكل تأكيد!»، أجبتُه. لم يخطر لي قبل ذاك أن أحدهم قد يشكِّك في انضمامي إلى مثل هذه الرحلات.

- «ليس الأمر مُؤكَّدًا إلى هذا الحدّ»، قال

لي. «الحقّ أنكِ تشعرين بالضجر معنا. ولا أدري ما السبب الذي يرغمنا على الذهاب معًا إلى كل مكان».

- «ما دمتَ لا تريد أن تذهب معي، فابقَ أنتَ في البيت!».

- «دعي عنكِ ذلك!»، أجابني بأقصى ما يملك من الاحتقار، وتابع سنَّ العصا. في تلك اللحظات، أردتُ أن أنسحب وأتركهما وحدهما، فما مِن شكّ في أنها رغبته. ولكني لم أفعل، يقينًا مني بأن خطرًا غامضًا بقدر ما هو مُروِّع يهدِّد أخي. ذلك الهاجس الذي أكَّدته كاتالينا مساء اليوم السابق عندما سألتُها:

- «أتعرفين ما «السائرون نيامًا»؟».

نظرَت إليَّ حائرةً، وكأنها لم تفهم شيئًا من سؤالي، فأوضحتُ لها:

- «أجل... أولئك الذين يُقال عنهم إنهم

يقومون ليلًا كالمستيقظين، ولكنهم ما زالوا نيامًا».

لم تجبني في تلك المرة أيضًا، فسألتُها:

- «أتعتقدين بأن بِنِيه مِن السائرين نيامًا؟».

- «ولماذا تكون منهم؟»، سألتني بقلق.

- «منذ أيام مرَّت بجواري عند منتصف الليل، غير أنها لم تنظر حتى إليّ. كان مصباح الرواق مُضاء. اقتربتُ منها سائرة في الاتجاه المقابل، فكدنا نصطدم بعضنا ببعض، ولكنها لم ترَني، مع أن عينَيها مفتوحتان».

- «رباه!»، انسلَّت الكلمة من فم كاتالينا كالتنهيدة، بينما راحت ترسم علامة الصليب بحركة آلية.

- «ماذا يجري؟»، سألتُها مذعورة.

- «لا شيء يا طفلتي، ولكن لا تخرجي من حجرتكِ ليلًا. يجب عليكِ أن تنامي جيدًا وإلَّا

مرضت».

- «سانتياغو أيضًا رآها»، قلتُ لها كاذبة، وقد بيَّتُ النية على تأكيد كلامي واستفزازها حتى يصدر عنها ردُّ فعل خارج عن السيطرة، لعلّه يكشف لي شيئًا. فما كان من كاتالينا إلَّا أن أمرَتني:

- «لا تتركي أخاكِ وحده أبدًا».

- «ولماذا؟ أهناك خطر ما؟».

أبَت أن تجيبني، وانصرفَت بعد أن قالت لي:

- «أنصتي إليَّ يا طفلتي، ولا تسألي عن حماقات».

كنتُ أعرف أن «حماقات» هي الكلمة التي عادةً ما تلجأ إليها كاتالينا إشارةً إلى كل ما ترى فيه تهديدًا، أو تجده محتومًا، في محاولة منها لطرد ذلك الشيء. لم أتمكَّن من نسيان تلك المحادثة القصيرة التي استطاعَت خلالها

أن تبثّني كل ما يختلج في نفسها من المخاوف. ولهذا السبب تحديدًا لزمتُ الصمت في اليوم التالي وأنا جالسة إلى جوار سانتياغو، وأبديتُ إصرارًا عنيدًا على الانضمام إلى تلك الرحلة برغم كل شيء.

أخيرًا وصلَت بِينيه والمنديل الأحمر على رأسها والسلة تتدلّى من ذراعها. أنا التي بدأت المسيرة. أذكر أنني قمتُ من مكاني، فشعرتُ كما لو أنني قد هرمت وأدركني التعب، وكأن شيئًا مفرط الثقل قد سقط عليّ. مضى سانتياغو في أثري وقد تراءت عليه أمارات الفتور، بل إنه كاد لا يتكلّم طوال الطريق. واكتفى بالإجابة على أسئلة بِينيه بكلمات مقتضبة، مُراوِغة. هبَّت ريحٌ مضطربة، ولكن واحدًا منا لم يخطر له أن يقترح العودة من حيث أتينا. وصلنا إلى النهر وقد تأخَّر الوقت كثيرًا، وتوارت الشمس خلف التل، ولم تعُد الثياب التي ارتديناها

تقينا بردَ المغيب. لم يكُن ذلك المشهد القاتم يمتّ بأدنى صلة إلى منديلٍ بِيِنيه الأحمر، أو لفتاتها الباسمة، أو صوتِها الذي جاء ممزوجًا ببهجةٍ مُتكلَّفة كانت بِيِنيه أبعد ما يمكن عن الشعور بها. رأيتُني منجرفةً مع تلك المسيرة التي خلتُ -حماقةً مني- أنني أنا التي قد بدأتُها. والآن ما عدتُ أجرؤ على مقاطعتها. تراءى لي بوضوح أنها لم تعُد رحلة.

وصلنا إلى بستان الكافور، فبدَت بِيِنيه وكأنها لا تدرك أن الليل يغشانا، وأن الوقت لم يعُد ملائمًا لبسط المفرش فوق الأرض الطينية. ولكنها استعرضَت جميع لفتاتها المُتكرِّرة مرة أخرى، كما فعلَت في الرحلات السابقة.

أبدى سانتياغو قدرًا أكبر من العقلانية بقوله:

- «أعتقد بأن الوقت مُتأخِّر للغاية، والبرد

قارس. ألن يكون من الأفضل أن نعود ونتناول شطيرة في الطريق؟».

- «بعد كل المسافة التي قطعناها سيرًا!»، أجابَت بِينِيه. «يجب علينا ألَّا نتراجع لسبب تافه مثل هذا. إنها مُجرَّد ريح طفيفة. دعونا نرَ إن كانت الأشياء التي قد أحضرتُها تروق لكما!».

لم أنظر حتى إلى اللفائف التي أخذَت تفضّها على المفرش. تحدَّثَت إلينا بذلك الصوت، الباسم الصادق، الذي طالما شفَّ عن رغبتها في حملنا على الاعتقاد بأنه لا توجد مشكلة واحدة، وبأننا نعيش موقفًا طبيعيًّا. أما سانتياغو، الذي مضى ساكتًا مستغرقًا في ذاته، فلقد خيَّم عليه صمتٌ مفعم بالتوتُّر، وبدا غارقًا في ألمٍ جديد لم يعرفه من قبل، ألم لا شكّ في أن بِينِيه هي المسؤولة عنه. أو على الأقل هكذا فكَّرتُ وأنا أرشق الفتاة بنظرتي المفعمة بالاتهام. أذكر أنني أحسستُ بعينيّ تلتهبان

من جرَّاء الريح والجهد الذي رحتُ أبذله كيلا يغمض لي جفن واحد. ولكنها لم تلحظ الانتباه الذي أوليتُها إياه. إذ استغرقَت في أمرٍ يهمّها أكثر كثيرًا حينذاك. وعلى الرغم من ذلك، تحلَّت بِلِينه بالجرأة الكافية لتقول:

- «ما أطيب تناول الطعام هنا، في الهواء المنعش!».

سرَت في بدني رعدة لدى سماعي تلك العبارة بالغة العفوية آتية من ذلك الوجه الخالي من الحياة. كما تراءى وجهها في تلك اللحظات. ومرة أخرى، خوَت نظرتها من كل شيء، واستحوذَت عليها أمارات الموت المُثلَّجة التي لم أرَ لها مثيلًا. التفتُّ نحو الاتجاه الذي نظرَت إليه بحدَّة، فرأت كلتانا الشيء نفسه: رأينا ما يشبه الظلَّ الشفيف الماثل في هيئة بشر. انحَت قسمات وجهه وسط الغبش. ولكني ميَّزتُ الغجري، عشيق الفتاة. لم يدُم ظهوره على بعد أمتار

أطول من طرفة عين. وعلى الرغم من ذلك، حدَّثني هاجسٌ مُروِّع بأنه لم يذهب إلى أي مكان، بل إنه قد يكون هناك، على مسافة حذرة منا، وإن لم أرَه بعينَيّ. أما ذلك التعبير الخالي من الروح المرتسم على وجه الفتاة، الذى بدا وكأنه قد خلا من كل أثرٍ للحياة، وتبلور في حلم سحري غريب، فلقد تراءى لي نذيرًا كافيًا يدلُّ على حضور الغجري. وإذا بصرخة جامحة مُخلِصة تنبثق من حلقي. أذكر أن سانتياغو قد احتضنني بقلق، ونطق باسمي حائرًا، مستفهمًا. لم يرَ أخي شيئًا، ولو أخبرته لما صدَّقني أبدًا، كما عرفتُ آنذاك. كانت بِينيه إلى جواري تلهث متظاهرةً بالخوف، بعد أن صفعَتني بكراهية، مُتعلِّلة بضرورة ذلك حتى أفيق من النوبة التي استغرقتُ فيها. ما زلتُ مقتنعةً بأن شرًّا آنيًّا قد حملها على أن تضربني. لم أفصح بشيء عمَّا جرى لي، وحرصَت بِينيه على ألّا تسألني عن ذلك.

الآن عرفَت أنني قد رأيتُ بعينَي. ومع ذلك، لم يبدُ أن الأمر يثير في نفسها أدنى قدر من القلق. بقيَت مستغرقة في التفكير، متظاهرةً برغبتها في مساعدتي. توجَّهَت إليّ بالحديث. وبصوت مسموع، افترضَت أن في ذهني سِمةً مَرَضية. أيّ مهارة أبدَت في طريق العودة! عكفَت على مواساتي بكل ما أوتيَت من الحنان، ومضَت تسدي إليَّ النصائح وتطرح الأسئلة.

- «هل تنامين جيدًا؟».

- «نعم»، أجبتُها. «ولكني أنام قليلًا. يروق لي القيام ليلًا والتجوُّل. في بعض الأحيان تظهر أشياء غريبة. ألا توافقينني الرأي؟».

مضيتُ أحاول استفزازها، بسذاجة. ولكنها لم تلقِ إليَّ بالًا.

- «هذا شيء سيئ جدًّا»، أجابَتني مفعمةً بالطاقة. «ولهذا السبب صارت أعصابك

هكذا، تالفة. ولكن حسنًا، انتهى الأمر برمته. اليوم تنامين جيدًا، طوال الليل، أتعدينني بذلك؟».

- «لا أدري»، قلتُ لها بحدَّة، وأبديتُ لها رغبتي في إنهاء تلك المحادثة، شعورًا مني بالسخط لأنها تتحدَّث إليَّ كما لو كنتُ طفلة صغيرة، وكأنني لا أعرف شيئًا، بل وكأن ليس هناك ما قد يُعرَف.

خلال طريق العودة، انغلقتُ على ذاتي مستغرقةً في صمتٍ عنيد، مُتعمَّد. خفتُ ألَّا يستطيع سانتياغو أن يدرك ما جرى أبدًا. الآن بات فراقنا لا رادّ له. شعرتُ بوحدة موحشة وأنا برفقة بِنِيه التي قادَتني ممسكةً بيدي. هجرنا الطريق سائرين عَبْر الحقول، بعيدًا عن مجرى النهر، في محاولة منا للعثور على درب مختصر يوصلنا إلى البيت في وقت أقصر، والهرب من ذلك الليل الثقيل البارد الذي أطبق علينا. أحزنني التفكير

بأن سانتياغو قد يعزو صرخاتي إلى شكلٍ من أشكال الاضطراب الذهني. ولكني لا أملك حتى أن أحاول تفسير الأمر له. فماذا أعرف أنا في واقع الأمر؟ الحقيقة أنني رأيتُ فحسب. ولكني في غاية البعد عن إدراك الأمور التي قد رأيت.

لقد حانت لحظة مواجهة بِينيه صراحةً، في غياب الشهود، ومطالبتها بتفسير قاطع. لأنها تعرف حقًّا. ذلك شيء لم يراودني فيه أدنى شكّ. ولكني ما عدتُ أراها إلّا وهي تقاسم كاتالينا أشغالها بدءًا من ذلك المساء. وإلّا فكانت تختفي عن الأنظار، أو تظهر وأنا لستُ بمفردي. في النهاية تسنّى لنا اللقاء وجهًا لوجه، بعيدًا عن أعين الجميع. ولكني لم أقدر على النطق بكلمة واحدة. ذات ليلة، دخلَت بِينيه إلى حجرتي وأنا مستغرقة في النوم. لا أدري كم ظلّت هناك، تراقب نومي عن كثب. أفقتُ فجأةً، وإذا بي أجدها

تميل عليّ، فشُلَّت أطرافي من شدة الهَوْل. أما هي، فما لبثَت أن قامت وتسلَّلت إلى الخارج مثلما دخلَت. حاولتُ أن أهدِّئ من روعي بالتفكير في أنها ربما جاءَت مدفوعةً بحسِّ الحماية. على الرغم من علمي أنها لم تكُن الحقيقة، بطبيعة الحال.

منذ الرحلة الأخيرة، فتَرت علاقتنا بصورة استثنائية. صارت بِينيه تجتنبني طوال النهار. وبِتُّ أنا لا أجرؤ على مغادرة حجرتي في الليل. بل إنني لم أقوَ حتى على أن أطلّ من النافذة. في كثير من المرات كنتُ أترقَّبُ الفجرَ مستيقظةً في جحيم طويل الأمد، جحيم أنسى أمره حالما تظهر أولى خطوط الفجر.

ذات يوم قرَّرتُ أن أطلب من خوانا المساعدة. رحتُ أترقَّبها وقد تسمَّرتُ خلف السياج ملأى بالمخاوف. كانت صديقتي، ولكنها شقيقة بِينيه أيضًا. كما أنها كذبَت عليَّ مرات بالغة الكثرة... ولكن لو أن هناك

من يعرف شيئًا عن العلاقة التي تجمع بِنِيه بالغجري حاليًّا، فهي خوانا. أو هكذا خُيِّل إليَّ على الأقل. وطبعًا، كنتُ أعرف إلى أي مدى قد يصعب تمييز الحقائق المُحتمَلة عن الأكاذيب المؤكَّدة في كلام خوانا. في النهاية رأيتُها مُقبِلة، عائدةً من المدينة. لمحَتني، فاقتربَت راكضة. كانت خوانا قد عثرَت في بركة ماء ضحلة على حذاء عتيق جدًّا ذي كعب عالٍ. أخرجَته من سلَّتها حتى تطلعني عليه. الأمر الذي أفقدني صبري، لأني لم أفهم تمام الفهم كيف يمكن لمثل هذا الاكتشاف أن يجعلها تشعر بكل هذه السعادة. جلسَت أرضًا، ثم انتعلَت الحذاء. أمسكَت حافة الثوب بيدها. وفيما هي تتظاهر بأنها ترتدي تنورة ضيقة، قطعَت بضع خطوات مُتوتِّرة على الطريق، حتى انسلَّت قدمها خارج الحذاء العملاق بالقياس إلى قدمَيها. رحتُ أراقبها بجدية بالغة في تلك

الأثناء، ولم أنضمّ إليها في لعبتها مطلقًا.

- «عندما أكبر، سأنتعل الحذاء ذا الكعب العالي دائمًا»، قالت وهي تقترب مني مُجدَّدًا.

- «وأنا أيضًا»، أجبتُها مفعمة بالحماسة عندما رأيتُها على أهبة الاستعداد للحديث. ثم أردفتُ: «يروقني جدًّا حذاء شقيقتك».

- «هل تنتعله في البيت؟»، سألَتني مندهشة.

- «بالطبع! فلهذا تملكه! ولكن في بعض الأحيان فحسب».

- «متى؟».

عند ذاك أردتُ أن أجيبها بأن شقيقتها تنتعل الحذاء ذا الكعب العالي كلَّما قدَّمَت العشاء، عندما يتمكَّن أبي من رؤيتها. ولكني لم أقُل شيئًا. واكتفيت بهزّ كتفَيّ، بما يعني أن تلك المسألة لا تعنيني في شيء. وتلك حقيقة، لأنني لم أنتظرها لأتكلَّم عن أي

شيء، بل عن أمرٍ في غاية الخصوصية.

- «أريد أن أطلب منكِ شيئًا»، قلتُ لها بنبرة خطيرة.

- «أي شيء؟».

قالت، وتبدَّلَت بحدَّةٍ لتضع كل تركيزها في إجابتي. وكأنها قد عرفَت ما أريد منها بالبداهة.

- «قبل ذلك، يجب عليكِ أن تعرفي أنها الحقيقة».

- «حقًّا؟ وما هي؟».

- «أن عشيق بِينيه، الغجري، يحضر لرؤيتها كل يوم تقريبًا».

- «ألا يُحتمَل أن يكون شخصًا آخر؟».

- «بل إنه هو. وأنا مُتأكِّدة من ذلك».

- «مِن أين يأتي؟».

- «ذلك شيء لا أستطيع أن أعرفه».

- «ولكن، أترينه؟».

- «طبعًا! ولكني لا أراه دائمًا. لأن لقاءاتهما لا تقتصر على الأوقات التي أراهما خلالها».

- «وماذا يفعلان عندما ترينهما؟».

- «لا شيء. يكتفي كلٌّ منهما بالنظر إلى الآخر عن بعد».

انطلقَت خوانا ضاحكة وهي تردِّد كلماتي، هازئة بما اعتبرَته سذاجة من جانبي. ثم قالت، وكأنها قد أُلِفَت مثل هذه الوقائع طوال حياتها:

- «يكتفي كلٌّ منهما بالنظر إلى الآخر عن بعد؟ ذلك ما تحسبين أنت».

- «ذلك ما أرى»، قلتُ معترضة.

- «لا يهمّ ماذا ترين. الحقيقة أنكِ لا ترين شيئًا».

- «أيبدو لك هذا شيئًا يُستهان به؟».

- «الأشياء التي يفعلانها خفية عن الأنظار. لا يمكنكِ حتى أن تتخيَّليها».

- «هل أنتِ مُتأكِّدة مما تقولين؟».

- «طبعًا!».

- «ولماذا تعرفين أنتِ ذلك؟».

- «أوه، لا! ذلك شيء لا يمكنني أن أخبركِ به حقًّا».

عندئذ شعرتُ برغبة تدفعني إلى ضربها. إذ كانت خوانا كلَّما أبَت أن تكشف لي شيئًا، في مثل هذه اللحظات، تتكلَّف نبرةً خطيرة أجدها مزعجة. وترسم أمارات التراجيدية على وجهها. وكأن واجبًا مُقدَّسًا، فُرِض عليها عن بعد كبير، يرغمها على أن تحجب عني شيئًا.

- «أنتِ كاذبة!»، صحتُ عليها في ضيق. لم أكُن على أهبة الاستعداد للسماح لها بأن

تعاملني كالجاهلة في مسألة لا شكّ في أنني أنا بطلتها، لا هي. فالحقّ أنها ما زالَت لم ترَ شيئًا، مهما سعَت لتبدو بمظهر صاحبة السلطة في ذلك السرّ الغامض.

- «لا يعنيني ماذا تعتقدين»، أجابَت من دون اكتراث، وكأنها تفكّر في شيء آخر، ولا تولي الأمر أهمية مفرطة. عندئذ عرضتُ عليها أن نلتقي في الحديقة ليلتها، في محاولة للصلح.

- «أريدكِ أن تريه أنتِ أيضًا»، قلتُ.

لزمَت الصمت، ونظرَت إليّ متفاجئة، خفتُ أن ترفض. ولكنها قبلَت.

- «سأحضر عندما ينام جدّي»، قالت لي بمظهر يشي بالقلق البالغ.

في تلك الليلة رحتُ أترقّب بصبر حتى تلاشَت آخر أصوات البيت. ولمّا بات الصمتُ عميقًا، تسلّلتُ إلى حجرتي. كانت ليلة مضطربة، انتشر فيها الضبابُ خفيضًا.

وعبَّأ الأجواء برطوبةٍ دبقة. خرجتُ إلى الحديقة والهواء المُبلَّل يطبق على حلقي. لم تكُن خوانا قد وصلَت بعد. شعرتُ برغبة في العودة إلى دفء فراشي، والأمان النسبي الذي توفِّره لي الأشياء المألوفة في حجرة نومي. وفجأة، رأيتُ ما يشبه الرأس مُطِلًّا مِن أحد المثلثات التي تشكِّلها أحجار الدربزين. «وماذا لو أنها ليسَت خوانا؟»، رحتُ أفكِّر. أذكر أنني كنتُ أرتجف من رأسي إلى قدمَيّ، وأنني قد توقَّفت عاجزةً عن قطع خطوة واحدة أخرى. لا أدري ماذا كان ليحدث في تلك اللحظات لو أن ذلك الرأس لم يطلّ من فوق السياج، ولو أنني لم أميِّز فيه رأس صديقتي. وضعَت كلٌّ منا يدها في يد الأخرى. ثم ركضنا نفتِّش عن مخبأ جيد والقمر شبه المكتمل ينير الحديقة على الرغم من الضباب.

- «لا يروقني أن أكون هنا»، قالت خوانا أول ما قالت. أشرتُ إليها كي تلزم الصمت،

ولكنها تابعَت قائلة:

- «أعتقد بأن بِينيه لن ترحِّب بأن نراقبها».

- «لن تعرف شيئًا».

- «وما أدراك؟».

تراءى لي أن خوانا تتكلَّم لمُجرَّد أن تطرد الخوف، إذ مضَت كلتانا ترتجف، ولم يكُن البرد هو السبب الوحيد. جلسنا على الأرض في أحد دروب الحديقة، حيث بلَّلتنا رطوبة الأرض. حجبَتنا بعض شجيرات إكليل الجبل عن السياج وباب البيت في الوقت نفسه. سألتُها فجأة:

- «لماذا شنق الغجري نفسه؟».

- «لا أدري»، أجابَتني حائرة.

- «هل كانت معاناته شديدة؟».

- «قلتُ لكِ إنني لا أدري».

- «ألم تسمعي أي شيء؟».

- «سمعتُ أكاذيب».

- «أي أكاذيب؟».

- «ولماذا تريدين أن تعرفي، ما دامت أكاذيب؟».

- «حسنًا. ولكن، أخبريني بها!».

- «قيل عن بِينيه إنها كانت تعرف عشاقًا آخرين».

- «هل أنتِ مُتأكِّدة أنها ليسَت حقيقة؟».

- «بالطبع! لقد عاشت معه في بيت واحد. وكانا معًا طوال الوقت. متى تلتقي العشاق الآخرين؟».

- «هل كان يعمل؟».

- «كلا. هي التي كانت تعمل».

- «في أي شيء؟».

- «لا أدري. ولكنها جنَت نقودًا كثيرة. ما يكفي لكليهما. وفي بعض الأحيان كانت ترسل النقود إلينا أيضًا».

- «شيء في غاية الغرابة».

- «كلا، ليس غريبًا. لا يحصل الغجر على فرص عمل في أي مكان».

- «ولكنها نصف غجرية، أليسَت كذلك؟».

- «بلى، ولكن لا يكاد أحد ينتبه لذلك».

- «ولماذا تعتقدين أنه قتل نفسه؟».

- «لا أدري. ربما لأنه قد جُنّ فجأة».

- «وماذا عن والد بِينيه، ألم يكُن يقابلها قطّ؟».

- «لا أعرف عنه أي شيء»، قالت خوانا بجفاء، بما يفيد أنني لا أستطيع السؤال عن ذلك.

- «يقول الناس إن عشيقها كان هو والدها».

- «إنها أكذوبة!»، قالت مذعورة. «الناس في غاية الخبث، ويكرهون الغجر. لا أحد يعنيه ماذا تفعل شقيقتي. إنها مُميَّزة».

وإذا بخوانا تضمّ يدي بين يدَيْها فجأة، في أمرٍ منها بأن ألزم الصمت. شعرتُ كما لو أنها تتشبَّث بيدي. وعندما لمحتُ بِينيه تنزل على دَرَج السقيفة، أدركتُ أننا قد أطللنا على عالَم لا ينتمي إلينا، عالم ينطوي على خطرٍ لا تُكشَف طلاسمه. أما الليل، الذي أضاءته الأنوار الباردة الشبحية، فتراءى وكأنه يلفّنا نحن وبِينيه في سرٍّ واحد. كنا هناك، في ذلك المشهد الشبحي، حيث لا بدّ من الانتظار حتى النهاية. جلستَ بِينيه على إحدى درجات السلَّم ناظرةً إلى أعلى، مُتَّكِئةً على أحد الأعمدة. تتبَّعتُ نظرتها إلى ملايين النجوم التي تسطع بعيدًا، عميقًا. دفنَت بِينيه

وجهها بين يدَيْها وهي تميل إلى الأمام. فكَّرتُ أنها ربما كانت تبكي. وخُيِّل إليَّ أنها قد أخفَت عنا ألمًا لا يُحتمَل. قامت لتقطع جولة قصيرة أمام البيت، فبدا ظهرها محنيًّا قليلًا. أما ذلك الانكسار المنبعث من هيئتها، فلقد تراءى وكأنه يشكِّل جزءًا منها، وكأنه ينتمي إليها مثل ساقَيْها، ويدَيْها، ووجهها... دخلَت إلى البيت من دون أن تنظر إلى الوراء، فلم تبدُ كمن يترقَّب مجيء أحدهم إلى السياج.

- «أتعتقدين أنها كانت وحدها؟»، سألتُ خوانا وقد شعرتُ بالخوف حين رأيتُها صامتة، مُتيبِّسة.

- «لا أدري. لم أرَ أحدًا سواها. ولا أريد أن أرى أحدًا سواها! لا يعنيني من يأتي للقائها! ولا أنتِ يعنيكِ ذلك!».

راحَت خوانا تعجِّل بكلماتها، وترفع نبرة صوتها، من دون أن تخشى افتضاح أمرها،

حتى انخرطَت في البكاء بمرارة حرَّكَت مشاعري. احتضنتُها وأنا لا أدري ماذا أقول.

- «أنا أحبّها. بِنِيه طيبة»، قالَت وهي تنتحب.

- «أجل، إنها طيبة بالتأكيد»، أردفتُ في محاولة للتهدئة من روعها.

ومنذ ذلك الحين، لم أرغب في التحدُّث إلى خوانا مرة أخرى عن تلك المسألة المظلمة. عرفتُ أنها وحيدة، أو أنها بالأحرى وحيدة مع بِنِيه. وعرفتُ أنني شريكتها الوحيدة.

بعد أيام قليلة، غادر والدنا المائدة في أثناء العشاء وقد بيَّت النية على أن يبتعد عنا مرة أخرى، من دون أن يقدِّم مُبرِّرًا واحدًا، وفيًّا لعادته. في صباح اليوم التالي خرج مسافرًا. لا قال لنا إلى أين ينوي الذهاب، ولا أحد سأله عن ذلك. أصغَت إليه بِنِيه بانتباه

شديد، وإن لم يبدُ عليها أدنى قدر من التأثُّر. وكأن الأمر لا يعنيها بحقّ. في تلك اللحظات، كنتُ لأجزم بأن الفتاة قد حافظَت على تلك المسافة بينها وبين أبي دائمًا. وعلى الرغم من ذلك، فلقد تراءى سانتياغو مُتأكِّدًا من أولى الشكوك التي راودَته.

- «لمَن طلبتَ الأزهار؟»، سأله فجأة.

- «هل تتلصَّص عليّ؟»، أجابه والدنا سائلًا بمزاج رائق.

- «كلا، بل سمعتُك من دون قصد في أثناء حديثك عبْر الهاتف».

- «من أجل سنيوره».

- «يُعتبَر أيُّ شيء «سنيوره» في نظرك!»، تدخَّلَت الخالة إليسا بازدراء، فأجابها بقهقهة رنانة. سكتَت الخالة، غير أنها لم تكفّ عن المشاركة في النقاش باللفتات التراجيدية والتنهيدات، ولا سيما بإيماءات الرأس التي

تتقن مزجها بشبح الابتسامة ونظرة الاتهام بكل براعة.

- «وماذا يكون من أمر بِينيه الآن؟»، سأل سانتياغو منفعلًا.

- «لا جديد، على حدِّ علمي. ستبقى في المكان نفسه كعهدها».

- «وأين كانت حتى الآن؟».

- «الحقّ أنني لا أفهمك».

- «بلى، تفهمني!». وفي لحظة واحدة، كان سانتياغو قد هبّ واقفًا وتضرَّج وجهه من فرط الغضب.

- «اهدأ، أيها الطفل! لا أدري ماذا دهاك. أي أسئلة عبثية تسأل! «أين كانت بِينيه؟» ... كانت تعمل في هذا البيت مؤخرًا. وستبقى هنا، لأنها تؤدّي عملها جيدًا جدًّا».

- «ما هذا الذي تؤدّيه جيدًا جدًّا؟» سأله

سانتياغو وهو يعترض طريقه، بعد أن قام أبي مُتَّجِهًا إلى الباب، ناظرًا إلى ساعته بجفاء.

- «لا نتفوَّه بمزيد من الحماقات، هيا! دعني الآن وشأني. يجب عليَّ أن أستيقظ في وقتٍ مُبكِّرٍ غدًا، ولنتحدَّث عن ما تشاء لدى عودتي».

ترك سانتياغو جسده يتهاوى على المقعد وسطنا، مُتجاهلًا إيانا، جالسًا إلى المائدة من جديد. أما شفتاه اللتان زمّهما قليلًا مُتأثِّرًا بتلك المرارة التي طرأت عليه حديثًا، فلقد انسلَّت من بينهما ابتسامة صامتة وكأنها بصيص أمل، ابتسامة خصّ بها بِنِينيه، التي لم تنظر إليه ولو نظرة واحدة. بل إنها ظلَّت تلملم أدوات المائدة رائحة غادية، وقد احتمَت في ذلك البُعْد الراسخ الذي بدا كما لو أنه قد جاء لنجدتها. وبأكبر قدر ممكن من التلقائية، مضَت تصغي إلى تلك المحادثة المؤسفة التي دارت بشأنها.

غادر والدنا فجرًا كما أخبرنا. لم يلقِ علينا حتى تحية الوداع. لطالما كان هكذا، يختفي من حياتنا فجأة. ومن جهة أخرى، لم تكُن له في حياتنا من الأهمية سوى أقل القليل. مع أن تلك المرة مختلفة. وعلى الرغم من ذلك، فأنا لا أستطيع أن أجزم، حتى يومنا هذا، بأن التغيُّرات التي وقعَت بعد رحيله على صلة بغيابه.

هبَّت في قلب هذا البيت عاصفةٌ عصية على السيطرة، عصية حتى على سيطرة الخالة إليسا، وهي التي ظهر أنها قد أخضعَت الواقع لمنطقٍ جامد. بعد الانتهاء من ذلك العشاء، اقترحَت الخالة بنفسها أن نتلو صلاة المسبحة، وذلك أمر بعيد كل البعد عن عاداتها. رحتُ أسائلُ نفسي عن الشيء الذي تأكَّد لها، فجعلها تبتهل وتطلب الحماية من قوة عليا وتبدو على تلك الحال: متواضعة، عزلاء. بطبيعة الحال، لم تنجح صلواتنا البسيطة في

دفع الكارثة التي حدَّثنا هاجسٌ باقترابها، الكارثة التي أخذَت تتكشف رويدًا رويدًا، حتى تجسَّدَت في شخص أخي بوضوح. بدأ كل شيء لدى عودته من المدينة ذات يوم، والنهار ينتصف. كان أخي قد غادر البيت ذاهبًا إلى المدرسة كما جرَت العادة. ولكنه في تلك المرة عاد من دون أن يدخل إلى المدرسة. ولم يبرِّر غيابه عنها بشيء سوى الادعاء بأنه في حاجة إلى راحة طويلة.

أذكر يا سانتياغو أنني قد رأيتُك فجأة كالجسد الذي غابَت عنه الروح. أما عيناك، الغارقتان في البكاء والأرق، فما عدتَ ترنو بهما إلَّا صوب الداخل، إلى ذلك الألم الغريب الذي استنفدك. كم كنتُ في عمر حرج آنذاك! الثانية عشرة. في ذلك العمر تعرف الألم، ولكنك لا تزال عاجزًا عن فهمه، دع عنك التعافي منه. دموعك، صمتك، هجرانك، كانت تلك الأشياء عندي حُكْمًا بعزلةٍ مُجرَّدة من

الحماية. عرفتُ أنكَ سوف تنساني لا محالة، فاكتشفتُ في البُعْدِ خواءً وحشيًّا يدنو مني. وكأن فوهةً هائلة فاغرة تهمّ بأن تفترسني. الآن أرنو إلى تلك الأعوام التي كانت لنا، فأرى أن تلك الريح المُروِّعة قد جرفَت كل شيء. تلك الريح التي أصغينا إليها أنا وأنت وقد تشابكَت يدانا. بينما رحنا نتأمَّل مأخوذَيْن، ونراقب من خلال النافذة فروعَ الأشجار التي ألهبَتها سياط العاصفة. لم يبقَ شيء واحد، فالزمن يذوب أبدًا.

والآن، هأنذا وحدي على الأرض، بينما يدنو مني وجهك الصديق آتيًا من ظلال بعيدة. لو أمكنك أن تتذكَّر، لما عاد للزمن وجود في حياتنا. أو لعلّ خلود الطفولة لا يعدو أن يكون أول خيال ننسجه في حياتنا. كم انتظرتُك! ولكنك لم تتمكَّن من العودة زائرًا كما فعل آخرون. لم يتسنَّ لك عبور الحدود الفاصلة بين عالَمك المستحيل وبيني.

لا أدري أي قوة غريبة يمارسها عليَّ كلُّ شيء لم يعُد على قيد الوجود، وأنا الغارقة إلى الأبد في وجود متلاشٍ، حيث يتلاشى الواقع من فرط ما بقي هناك وتجلَّى وتكرَّر بشراهة. ما زلتُ أسأل نفسي عما يُحتمَل أن يكون قد حدث لك، فلا أجد جوابًا. ولا أستطيع التصديق بأن الحب وحده قد جرَّعك تلك الهزيمة. من المؤكَّد أن شعورك نحو بِينيه بالحبِّ كان أشبه بالمسّ الخارق الآتي من أعماق الموت. أتذكر؟ كانت هي تضحك عندما أطرح عليها تلك الأسئلة التي وجدتَها أنت في منتهى الغرابة. وتعزف عن الإجابة. ولكن أقنِعَتها بدأت في التساقط. وذات يوم، لم تبقَ لها ضحكات ولا كلمات. لم تسكن وسطنا يومًا بحقّ. كانت تصطنع البهجة والحنان. ولكن ألمًا مميتًا قد تسلَّق جسدها كالغرغرينا، ومضى يبثّ فيها الوهن حتى استقرّ في روحها ووجهها خواءٌ مُروِّع إلى

الأبد. عند ذاك، عند ذاك وحسب، أخذَتها شفقةٌ عليك، لتعاستك وتعاستي.

- «إن الشيطان يحوم حول هذا البيت!»، قالت دُونيا روساورا. وفيما رحتُ أقترب منها، سألَتني وهي تحكم قبضتَيها حول ذراعَيّ:

- «هل رأيتِ أحد الغرباء في الأيام الأخيرة؟».

- «كلا»، أجبتُها متظاهرةً بعدم الاكتراث.

- «من الآن فصاعدًا، لا تذهبي إلى السياج، ولا تتحدَّثي إلى غرباء. إن الشيطان يحوم حول هذا البيت، وأنتِ تعرفين. ربما اتَّخذ لنفسه أي شكل حتى يخدعنا: كلب وديع، شحاذ بائس، طفلة عزلاء، كاهن، رجل عادل، امرأة شريفة... قد يظهر الشيطان في أي شكل يبدو له ملائمًا، بما يناسب الحال، فلا تنصتي إلى أحد، بشرًا كان أو حيوانًا، حتى أنبِّهك. ولو عثرتِ في حجرتك على شيء

تعجزين عن تمييزه، فأحضريه إليَّ فورًا. حتى الجمادات الخالية من الحياة ربما كانت خاضعة لأوامره».

لم تقتضِ الحاجة سماع تلك الكلمات حتى أنتبه إلى الأجواء الغريبة التي أحاطت بي. فأينما نظرت، لمحتُ علامات على وجوده. بطريقة ما، صار يسكن وسطنا. عرفتُ أنه هو، الغجري، الذي وصفتاه بأنه الشيطان. لم أعجب لذلك، فهو أشبه ما رأيتُ في حياتي بالشيطان. أما دُونيا روساورا، التي صارت تعيش معنا آنذاك، فبدا أنها قد جاءت لتحمينا منه. ليس الأمر أنها قد اعتبرَت نفسها قادرة على مواجهة تلك القوى الخبيثة التي ينبض بها بيتنا. لم يكُن ذلك هو الدافع الذي جاء بها إلى هنا. بل إنه الخوف الذي استبدّ بالخالة إليسا، التي لم تجد ما تلوذ به أمام أسلوب بِنِيه الجديد. إذ تخلَّت الفتاة عن الابتسامات والأغنيات بعد أن غادر

أبي. والآن صارت تجوب البيت متثاقلة، بلا مسار مُحدَّد، فتستفزّ الخالة إليسا بمُجرَّد حضورها. لم تعُد تفعل شيئًا. بل إنها امتنعَت عن تلبية الأوامر، أيًّا كانت. بقيَت بِبِنيه هناك، ببساطة. لم ترحل لأنها لم ترغب في ذلك. لم تكُن الخالة قد واتتها الجرأة على طرد بِبِنيه، بطبيعة الحال. لم أدرك السبب الذي حملها على الصبر آنذاك. ثم عرفتُ أنها لم تنتظر وتتضاءل أمام حضور الفتاة إلَّا تحت وطأة الخوف. في حين صارت بِبِنيه أشبه بملكة، ملكة لا تقبل أمرًا واحدًا يُملَى عليها. وراحت تتمادى في الشطط والوقاحة التي مارسَت بها حريتها. أما نظرتها، الوئيدة الكثيفة، فكانت لها القدرة على أن تبث الحيرة في نفس من يواجهها. بينما انبعثَت من سكونها وحركاتها رصانةٌ عميقة. أصبحَت تحوم حولنا ثقيلةً قويةً كالنسر. ولم تعُد تتحدَّث إلى أحد سوى سانتياغو، الذي صارت

تُشاهَد معه في كل لحظة. رفض العودة إلى المدرسة، فلم ترِد الحالة إليسا أن تولي مخالفاته أهمية، ظنًّا منها بأنه سوف يعود بإرادته متى انتهَت إجازات عيد الميلاد القريبة.

في تلك الأيام، أذكر أنني كنتُ أمضي ساعات طويلة سائرةً خلفهما في أرجاء البستان أو الحديقة، وأتبعهما عن بعد، مندهشة وخائفة معًا. حرصتُ على الاحتفاظ بالمسافة اللازمة بيني وبينهما لئلَّا يكشفا أمري. في بعض الأحيان، كنتُ أراها تدخل إلى حجرة أبينا وحدها، فتلتقط إحدى سجائره وتشعلها. مضَت تدخِّن أكثر فأكثر، فلم يجرؤ أحد على أن يخبرها بأن ذلك شيء لا يليق بامرأة، دع عنك خادمة. لا شكّ في أن تلك هي الخواطر التي راودَت الحاضرين في البيت. كانت بِينيه تقطع جولات مُطوَّلة في الحديقة ليلًا، فأمعنُ النظر إلى الظلال المحيطة بها. لم أجد شيئًا يتحرَّك على مقربة

منها، أو شخصًا ينظر إليها من خلال السياج. على الرغم من ذلك، وبينما أنا في عزلة حجرتي، وسط ذلك الصمت المطبق، كنتُ أشعر، كلَّما توارَت بِنِيه عن الأنظار، بأنني منجرفةٌ إلى أقصى حافة أرض مشؤومة. تلك الأرض التي سكنها الغجري. تضاعفَت العلامات المُنذِرة بمجيئه من حولي، وصارت الإشارات المُعلِنة عن حضوره تصلني من كل حدب وصوب، فتتجلَّى أحيانًا على شكل بخار خفيف يغطِّي زجاج نافذتي، أو صرير خشب، أو نفَسٍ مُثلَّج يهبّ على مؤخر عنقي، أو وقع خطوة مكتومة. جاءت علاماته عصية على الفهم. وحده الرعب الذي استبدّ بي كان مُحدَّدًا، لا يرقى إليه شكّ. وعلى الرغم من ذلك، فلقد مضيتُ منجذبةً إلى الفكرة التي حدَّثَتني بأن ذلك المسخ آتٍ من أجلي، لا من أجل بِنِيه. لم أرِد أن أعرف أنني قد أُقصيتُ تمامًا من

ذلك العالَم الذي كان سانتياغو على وشك أن يخوضه، مقتربًا منهما بصورة خطيرة، من دون أن يرتاب في المكان الذي سوف يقتادانه إليه. لم يعُد هو نفسه. ولكني تساءلتُ مستغرقةً في الحيرة: «مَن كان هو نفسه؟». ما عدتُ أدري مَن كان هو، ولا مَن كنتُ أنا. وشعرتُ بنفسي منجرفة إلى تحوُّلٍ محتوم.

ذات يوم، لمحتُه مع بِينيه في الحديقة. كنتُ أراقبهما على مسافة حذرة، كما فعلتُ مرات أخرى. لم ينتبه سانتياغو حتى إلى حضوري. أما هي، فلقد رشقَتني بنظرات الاحتقار وهي تطوِّق عنق أخي بذراعها كالأفعى. بذلتُ جهدًا فائقًا للاحتفاظ بالهدوء، وبقيتُ في غاية السكون، فلا تراجعتُ ولا اقتربتُ منهما. واجهتُ نظرتها. وإذا بي ألمح فيها عدوةً لأول مرة. غير أن ذلك الانطباع لم يستمرّ أطول من ثانية واحدة، فسرعان ما أطلَّت من وجهها نظرة حزينة مفعمة

بالوحشة لم أقوَ على مقاومتها. ظهر جليًّا أنها لا تكرهني أنا. اضطُررتُ إلى التراجع من دون أن أنبس بكلمة واحدة. ومرة أخرى، أذاقَتني الهزيمة.

في الليلة نفسها، وبينما أنا في الفراش، سمعتُ خطوات مضطربة وأصواتًا في الرواق. راحت الأبواب تُفتَح وتُوصَد بانفعال، وتناهى إلى سمعي اسمُ سانتياغو آتيًا بصوت مختنق، منخفض رغمًا عن صاحبه. لا كان أخي في حجرته، ولا بِينيه في حجرتها. بينما وقفَت دُونيا روساورا والخالة إليسا عند أول الدرج المفضي إلى البرج. وقد بلغ منهما الاضطراب مبلغًا جعلهما لا تنتبهان إلى حضوري. كانت الخالة إليسا أول من صعد الدَّرَج، بتردُّد، ولكن برصانة، واثقة من أنها تؤدِّي واجبًا ثقيلًا على النفس. مضينا في أثرها وصولًا إلى باب البرج. كانا هناك، حيث أوصدا الباب من الداخل.

- «سانتياغو، افتح، أرجوك»، مضَت الخالة إليسا تتوسَّل إلى ابن أختها، وهي لا تملك القوى اللازمة لتنتهره أو تُبدِي له أي قدر من السلطة.

انفتح الباب، فأضاء وجه أخي بريقٌ خافت. اقترب منا حتى وقف في إطار الباب، مُتعمِّدًا أن يسدّ الطريق في وجوهنا. أحسستُ به يرمقنا بنظرته العدوانية، كلنا على حدّ سواء. في تلك اللحظة صرنا أنا والمرأتان الأُخريان عنده شيئًا واحدًا.

- «أترغبن في الدخول؟»، سأل باسمًا، غريبًا، مُتهكِّمًا.

- «أغثه يا إلهي!»، تضرَّعَت الخالة إليسا بصوت مرتجف.

-«حذارا!»، نصحها سانتياغو بنبرة هازئة: «ما دمتِ لا تعرفين جيدًا أين هو الرَّب، فربما أخطأتِ وأرسلتِ توسُّلاتكِ إلى الشيطان».

رأيتُه على تلك الحال، وحقًا مُتهكِّمًا، فلم أتعرَّفه.

- «أهي هناك؟»، سألَت دُونيا روساورا بغضب عارم، فلم يُجبها. ولما صارت أمامه، وراحت تدفعه بعنفٍ ليسمح لها بالدخول، أوصد الباب في وجوهنا جميعًا.

وإذا بالخالة إليسا تستردّ سلطتها صائحة:

- «أعرف أنكِ هناك يا بِنِيه. لملمي أشياءكِ وارحلي عن هذا البيت فورًا. إن لم تذهبي الآن، فغدًا يأتي الحرس المدني من أجلك».

لم نتلقَّ منهما ردًّا، فانسحبَت المرأتان بهدوء وقد استقرَّتا على قرار حازم أخيرًا. أرغمَتني دُونيا روساورا على أن ألزم حجرتي وأوصد بابها بإحكام، في عزلةٍ هي الأشدّ قسوةً. مع أن الباب لا يشكِّل أدنى عقبة أمام ذلك الذي أخشاه، بطبيعة الحال. أو على الأقل هكذا فكَّرتُ برضًا آتٍ من أعماق

الخوف الذي اجتاحني بالكامل. لم أكُن في حاجة إلى تأمُّل السياج من نافذتي، إذ حدَّثني شعورٌ واضح بأن وجه الغجري يحوم حولي ويراقبني طافيًا في الهواء. خيَّمت عليَّ أجواء خبيثة مصدرها حضوره الخفي، ذلك الحضور الذي بِتُّ أتعرَّف العلامات الدالة عليه حالما أراها.

كان اليوم التالي هو الأحد. وعلى الرغم من برودة الطقس، فلقد سطعَت الشمس منذ ساعات الصباح الأولى.

- «إنها تنتظر أن يعود إنريكي»، قالت الخالة إليسا عن بِنِنيه.

- «ولكن... أما زلتِ قادرةً على التفكير بهذه الطريقة؟»، أجابَت دُونيا روساورا، وقد استعدَّت لحضور قدَّاس الأحد.

- «ماذا تنتظر إذن...؟»، سألَت الخالة إليسا.

- «شيئًا آخر».

- «أي شيء؟».

- «لا أدري. مهما قلَّبتُ الأمر في ذهني، لا أفلح في التحقُّق من ذلك. إنها تنتظر شيئًا، ربما كانت تنتظر إشارة من الخارج، أو من مكان يعلمه الرَّب! لأن ذلك الطفل، ابن أختك، قد صار الآن بين يدَيْها».

- «لا تتفوَّهي بمثل هذه الأمور، رباه! يجب علينا أن نفرِّق بينهما. لا بدّ من الاتصال بالشرطة!».

- «دعي عنكِ السذاجة يا دُونيا إليسا. لا تملك سلطات هذا العالَم أدنى قوة في موقفٍ كهذا».

- «وماذا يمكننا أن نفعل إذن؟».

- «قريبًا ترين»، أجابَت دُونيا روساورا بغموض. ثم اقترحَت أن نذهب جميعًا لحضور

القدَّاس الإلهي سيرًا على الأقدام، وبذلك نخرج في جولة صحية على الطريق أيضًا، على حدِّ قولها.

كنتُ أمامها حين أبلغَت بِينِيه بقرارها. إذ مدَّت كتاب صلوات القدَّاس إلى الفتاة فجأة، بيدٍ ترتجف مُعلَّقةً في الهواء. لم تلقَ ردًّا. إذ رمقَتها بِينِه بنظرةٍ وقد خلا وجهها من التعابير، ولم يبدُ عليها أنها هي المعنية بذلك. كان الكتاب مُجلَّدًا، مُذهَّب الحواف، بَيْد أنها لم تنجذب إليه.

- «إليك! إليك! إنه لك. أهديكِ إياه».

أذكر أن بِينِيه ما كادَت تلتقط الكتاب حتى تحوَّل وجهها. وبرقَت عيناها بشراسة، وإذا بفورة من الغضب تستحوذ عليها من رأسها إلى قدمَيْها.

- «ماذا تحسبين أيتها المشعوذة!»، قالت بِينِيه بازدراء، وألقَت الكتاب إلى أحد الجدران.

- «الكتاب يحرق يدَيْها»، صرخَت الخالة إليسا مذعورة.

- «إنه الدليل القاطع»، أدلَت دُونيا روساورا بحكمها في حماسة.

بينما انهارت بِينيه على المقعد. وفي تلك اللحظات، بدَت بمظهر امرأة في غاية الهشاشة. تهدَّجَت أنفاسها، وغابَت نظراتها في الشيء الوحيد الماثل أمامها، كوة الدَّرَج المفضي إلى البرج. عندئذ حاصرَتها المرأتان، وتحرَّكَا حولها كأنهما مدفوعتان بنابض واحد. لاحقتاها بأسئلة لا أنا فهمتُها ولا بِينيه فهمَتها، على ما أظنّ. بل إنها اكتفَت بتحمُّل المرأتَيْن، ولم تردّ بلفتة واحدة، لا بالوجه ولا بالجسد.

- «الرَّب معنا نحن»، قالت دُونيا روساورا لتختم بذلك التحقيق الذي ترك بِينيه منبوذة.

راحت أضواء النهار تخبو رويدًا رويدًا، حتى هبَّت واحدة من تلك العواصف التي

كثيرًا ما تأمَّلتُها أنا وسانتياغو من البرج. وبعد صمتٍ مفعم بالتوتُّر، استمرّ حتى المغيب، خرجت بِنِيه من البيت. كنتُ وحدي عندما لمحتُها من نافذتي. شعرتُ نحوها بأسى لا يُحتمَل. وبِتُّ أراها كما رأيتُها في البداية. ارتدَت الثوب الأنيق الذي كانت ترتدي حين تعرَّفتُ إليها، واكتفَت بسترة خفيفة من الصوف، بلا معطف. لم تنظر إلى الخلف ولو مرة واحدة. مضَت تسير ببطء، وقد انحنى ظهرها بعض الشيء، وغاص رأسها بين كتفَيْها، وكأنها تحاول أن تقي نفسها المطر الذي انهمر فوق رأسها بعنف. ظلَّت أمتعتها مقتصرةً على صندوق الحذاء الذي ضمَّته تحت ذراعها اليمنى. كانت هيئتُها تشي بانعدام الحيلة، حتى تمنَّيتُ لو أركض خلفها وأقدِّم إليها الحماية القليلة التي أستطيع أن أقدِّمها. ولكن أحدهم سبقني. سانتياغو.

- «انتظريني!»، صرخ فيها سانتياغو.

لحق بها، فأمسك بذراعها مفعمًا بالحيوية، وأرغمها على أن تركض إلى جواره. بدا أنه هو الذي يأخذها من البيت. تدلَّت من يده الأخرى حقيبة، علامة لا يخطئها الناظر على رحيله عن البيت بمحض إرادته.

خرجتُ من حجرتي، وإذا بي أرى الخالة إليسا تخرط في بكاء يائس، لأول مرة. هي أيضًا رأتهما يرحلان.

بعد مضي أسبوعَيْن رجع سانتياغو. لا أدري كم مرة خرجتُ لأراقب الطريق وأنا أنتظره. كنتُ أنتظره بخوف، وأتخيَّله وقد غُلَّت يداه بالأصفاد بين اثنين من رجال الحرس المدني، بعيدًا. ذلك أن الخالة إليسا قد أبلغَت الشرطة بهرب سانتياغو حين عجزَت عن تحديد موقع والدنا. وجدتُ أخي في البيت مُجدَّدًا، بمنجاة من كل خطر، فنظرتُ إليه مُتفاجِئة، مُتأثِّرة. رأيتُه كأي جندي يعود مهزومًا من حرب لا تعنيه في شيء. صعد الدَّرَج المفضي

إلى البرج خلسةً، كما لو كان ظلًّا، فركضتُ خلفه، ورحتُ أناديه بصوت خفيض جدًّا لئلَّا يكتشف وجوده أحد. ترك حقيبته أرضًا، وعانقني عناقًا طويلًا مفعمًا بالحنان. حينذاك عرفتُ أنه لم يعُد له أحد سواي.

- «سوف يتبدَّل كل شيء»، قلتُ له وأنا لا أدري جيدًا ما الشيء الذي يجب أن يتحوَّل في حياتنا. ابتسم سانتياغو، فتراءت لي ابتسامته وكأنها ابتسامة شخص غريب. لم تنمّ عن بهجة، وإنما عن تعب وتسليم.

- «سوف أنام. لم أذق للنوم طعمًا ليلة أمس».

- «أتتكلَّم لاحقًا؟»، سألتُه بلهفة.

- «أجل، إن كنتِ تريدين ذلك».

- «هل أخبرُ الخالة إليسا بعودتك؟ إنها في غاية القلق».

- «كلا، لا تقولي لها شيئًا».

- «لماذا؟ أتفكّر في الرحيل مرة أخرى؟».

- «كلا، لم يعُد ذلك ممكنًا. هيا، انزلي، ولاحقًا نتكلّم لبعض الوقت».

شعرتُ بأننا قد عدنا رفيقَيْن مرة أخرى، وبأنه قد أفسح لي مكانًا إلى جواره. وكأن شيئًا لم يحدث، حتى الزمن الذي باعَد بيننا شعرتُ وكأنه لم يمرّ. وإذا بصوت الخالة إليسا يتعالى كالصرير المزعج فجأة.

- «كيف هذا! أنت هنا؟! أتدخل إلى البيت هكذا، وكأنك لم تفعل شيئًا؟ انزل فورًا، لأنك سوف تخبرني بكل ما جرى لك مع تلك الساقطة!».

- «اصمتي!»، صاح عليها سانتياغو وقد خرج عن شعوره.

ثم دخل إلى البرج وأوصد الباب على نفسه،

فلم يسمع شتائمها ولا تهديداتها. انصرفَت الخالة إليسا تاركةً شعورها بالضيق وخواطرها السقيمة تتسرَّب بصوت مكتوم. كانت تعرف أنني أتبعها عن قرب، فلم تمانع أن أسمع كل هذه الأهوال والفظائع التي تنسبها إلى أبينا. إذ اعتبرَت أنه المذنب الأكبر في كل ما حدث. لم أستطِع أن أغفر لها قطّ أنها قد خرَّبَت تلك الحماسة التي دبَّت في نفسي من فورها، فبعد الظهور العنيف للخالة، أوصد سانتياغو باب البرج على نفسه نهائيًّا. وأبَى أن يفتح الباب لأحد، حتى أنا، وأنا التي أمضيتُ ساعات على الجانب الآخر من الباب، جالسة على آخر درجة في السلم، مُتوسِّلةً إليه حتى يجيبني، وإن يكُن من خلال الباب الموصد.

بعد عدة أيام من الحبس، بدَّلَت الخالة نبرتها مع سانتياغو، فبدَت حنونًا، خائفةً أمام ذلك الشطط. لم تعُد دُونيا روساورا تعيش

في البيت. بينما راحت كاتالينا تقطع الدَّرَج صعودًا ونزولًا طوال الوقت وهي نتوسَّل إليه حتى يأكل شيئًا. ولكن كل التوسُّلات ومظاهر العطف قد جاءَت بعد فوات الأوان. في النهاية دعَت الضرورة إلى فتح الباب عنوة، فوجدنا سانتياغو نائمًا، غارقًا في وهن الموت. ولم يقدر شيء واحد، إطلاقًا، على أن يردّ إليه الحياة.

حين عرفتُ أن أخي مصاب بمرض شديد إلى هذا الحدّ، خطر لي أن بِنِيه قد تُرغِّبه في الحياة وترغمه على محاولة الخروج من تلك الحالة. وحدها خوانا كانت تستطيع أن تساعدني في العثور عليها. لهذا أمضيت عدة نهارات وأنا أنتظر أن تمرّ أمام السياج. وأخيرًا رأيتُها تقترب ذات يوم، فخرجتُ للقائها صائحة باسمها. ولكنها لم تكتفِ بالامتناع عن الردّ، بل إنها انطلقَت هاربةً مني. لحقتُ بها، ورحتُ أهزّ كتفَيْها بغضبٍ عارم.

- «ماذا جرى بينك وبيني؟ ماذا جرى لك؟»، صرختُ فيها وقد جُنَّ جنوني.

وإذا بها تجهش بالبكاء يائسة، ممتنعةً عن الكلام، وأخذَت تدفعني عنها بعنف كلَّما حاولتُ مواساتها.

- «أخبريني بمكان بِنِيه على الأقل! سانتياغو مصاب بمرض شديد، لا بدّ أن يراها!».

بدَّلَت خوانا طريقتها فجأة، وأمسكَت عن البكاء ناظرةً إليَّ بخضوع وكأنها لم تعُد تملك من القوى ما يكفي لتستمرّ في رفضي. وبصوتٍ خافت للغاية، بغمغمة حزينة، قالت لي:

- «لقد أخذها أبوها مرة أخرى».

- «إلى أين؟».

- «إليه».

- «وأين هو؟».

- «لقد مات».

وأمام تلك الكلمات، شعرتُ بالخوف يستحوذ عليَّ. وكأن دائرةً قد اكتملَت، فبقي سانتياغو أسيرًا في داخلها إلى الأبد.

- «إذن، فهل ماتت بِينيه؟»، سألتُها بلهفة.

- «أجل. هي أيضًا شنقَت نفسها؟».

- «لماذا؟».

- «لأنه قد أخذها».

- «هو؟ مَن هو؟ والدها أم عشيقها؟».

- «والدها».

- «وهل كان هو عشيقها؟».

- «لا أعرف عن ذلك شيئًا».

لم أطرح عليها مزيدًا من الأسئلة. لقد ماتت بِينيه. وذلك هو الشيء الذي شغل خواطري تمامًا في تلك اللحظة. أما البقية، فما عادت تهمّ

في شيء.

- «حسنًا، أنا ذاهبة»، قالت فجأة.

لم أرغب في استبقائها أطول من ذلك. أبدَت خوانا غضبًا عارمًا نحوي أنا والعالَم بأسره، فخطر لي أنها تملك من الأسباب ما يكفي لذلك. تركتُها تذهب، عاجزةً عن النطق بكلمة واحدة أخرى. ولكنها التفتَت إليّ وصاحت عن بُعد قائلةً:

- «سوف يأخذان سانتياغو أيضًا! أعرفُ ذلك!».

فكَّرتُ أنها لا تقصد إيذائي، بل التقرُّب مني، والتحدُّث إليَّ أطول قليلًا. ولكني لم أملك الردّ بشيء واحد. شعرتُ بأنني خاويةً من كل كلمة. أوليتُها ظهري وعدت إلى البيت سائرة ببطء شديد، وأنا أتمنَّى لو كان كل ما أخبرَتني به أكذوبة، ويا لها من كاذبة! صعدتُ إلى الدَّرَج بآليةٍ حتى أجلس

مع سانتياغو مرة أخرى. لم أصدِّق خوانا. واقتنعتُ بأن أخي لن يموت.

سانتياغو، لقد أبيتَ أن تفتح لي بابك وأنت لا تزال قادرًا على الكلام. ورفضتَ زياراتي كما رفضتَ سائر الزيارات. كنا على مشارف الجنون، أنت من الداخل وأنا من الخارج. وحين تسنَّت لي رؤيتك أخيرًا، كانت كل كلمة بيننا قد تلاشَت. سُمح لي بأن أبقى إلى جوارك، ليل نهار، شريطة ألَّا أتحدَّث إليك. قيل إنك في حاجة إلى صمت مطبق للتعافي. ولسوف أذكر دائمًا كيف رحلت عنا. في تلك الليلة بدا كل شيء في الخارج جامدًا. وإذا بسكون سحري يستحوذ على البيت، والحديقة، والطريق، وكل ما يمكنني رؤيته من البرج. أبيتُ التحديق إلى البدر من خلال زجاج النافذة، اعتقادًا مني بأنه قد يجرّ عليَّ حظًّا تعيسًا. ولكن صورة البدر قد داهمَتني في سهو مني. كان هائلًا، باردًا، كاملًا. وإذا

بظلٍّ يغشاني بدءًا من تلك اللحظة. جلستُ إلى جوارك، ورحتُ أراقبك. أي هدوء كان ينبعث من وجهك! لم أستطِع أن أحوِّل عينَي عن وجهك، ولا أفكاري عن ذلك الارتياب الأشدّ دكنةً. كم تراءى جسدك ساكنًا! وكأنك تمثال من الحجر. وفجأة، لاحظتُ أنه لا يُسمَع في البرج إلَّا صوت أنفاسي. عند ذاك أدركتُ أن قلبي هو القلب الوحيد الذي يخفق في ذلك المكان. لامستُ يدَيْك برقَّة، فأحسستُ ببرودة الموت. كنتَ أنت قد رحلت. مُتَّ في حضوري من دون أن أنتبه إلى ذلك.

بعد أن قضى سانتياغو، هرولتُ إلى الحديقة وقد جُنّ جنوني، وكأن إرادةً قوية قد نادَتني من هناك. لم أرغب في شيء سوى الرحيل مع أخي، وعرفتُ أنه قد صار معهما، مع بِينيه، والغجري، الذي ينتظرني أنا أيضًا. لمحته على الفور. كان يتفرَّس فيَّ عن بُعد. فلم

أملك أن أرى سواه. وكأن الليل قد خلا من كل صورةٍ إلَّا صورته في تلك اللحظات. ظهر عند السياج. غير أنه لم يكُن خلفه في تلك المرة، بل أمامه. مضى يتحرَّك بطريقة تكاد لا تُدرَك، ببطء، آتيًا نحوي. استطعتُ أن أرى بكل وضوح قسمات وجهه ونظرته الشرسة التي رشقني بها. كان هو الهَوْل مُجسَّدًا، وقد أطلّ على هذا العالَم من خلال وجه بشري. شعرتُ بأنني لن أقوى على مقاومة رؤية ذلك الرعب. وعلى الرغم من ذلك، فلقد مددتُ يدي إلى كتفه عندما اقترب مني. لا أدري إن استطعتُ أن ألمسه أم لا. لقد بلغَت تلك اللحظة من العنفوان حدًّا منعني من الاحتفاظ بها في ذاكرتي. ولكني أعلم أنني قد سلَّمتُ نفسي طوعًا لتلك الطريقة من طرائق الموت. وإذا بكل شيء من حولي يذوب في سواد تام. بينما أحسستُ به يطوِّقني بعذوبة، ويغشى المكان كاملًا من

حولي.

كاپيليرا، يناير - فبراير ١٩٨١

ومدريد، مارس ١٩٨٤

(١) المناولة: تناوُل القربان، وذلك من الأسرار المُقدَّسة في المسيحية. (المترجم)

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook